دروس وعظات من تفسير الآيات

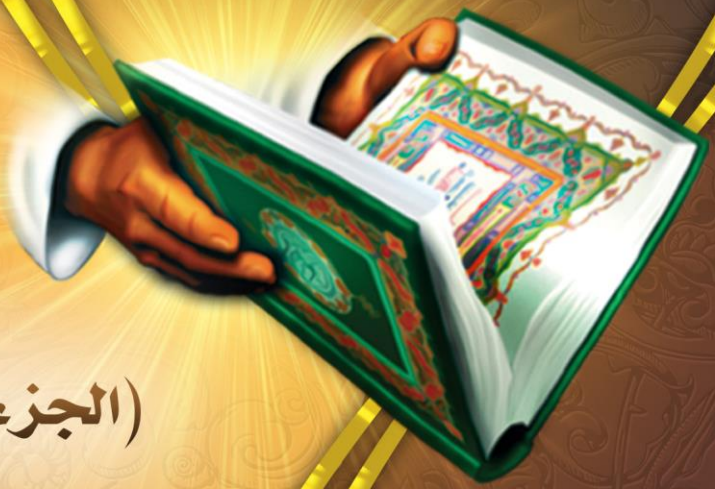

(الجزء الأول)

جمع وترتيب
من خطب ومحاضرات فضيلة الشيخ
أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان

دار الفرقان المصرية للنشر والتوزيع

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ لِلْقُرْآنِ بِرَمَضَانَ مَزِيدَ اخْتِصَاصٍ؛ فَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ -تَعَالَىٰ- الْقُرْآنَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَلِنُزُولِ الْقُرْآنِ فِي رَمَضَانَ أَوْجَبَ اللهُ -تَعَالَىٰ- صِيَامَهُ.

وَلِلنَّبِيِّ ﷺ بِالْقُرْآنِ فِي رَمَضَانَ مَزِيدُ عِنَايَةٍ وَرِعَايَةٍ، وَمَوْصُولُ تَدَارُسٍ وَتَدَبُّرٍ.

وَلِلْمُسْلِمِ فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ الْأُسْوَةُ الْحَسَنَةُ؛ لِأَنَّ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ أَصْلُ صَلَاحِ الْقَلْبِ، وَفَلَاحِهِ، وَثَبَاتِهِ.

وَلَا شَيْءَ مِثْلُهُ فِي تَثْبِيتِ قَوَاعِدِ الْإِيمَانِ فِي الْقَلْبِ، وَإِرْسَاءِ دَعَائِمِهِ؛ «لِأَنَّ اللهَ أَمَرَ بِتَدَبُّرِ كِتَابِهِ، وَالتَّفَكُّرِ فِي مَعَانِيهِ، وَالِاهْتِدَاءِ بِآيَاتِهِ، وَأَثْنَىٰ عَلَىٰ الْقَائِمِينَ بِذَلِكَ، وَجَعَلَهُمْ فِي أَعْلَىٰ الْمَرَاتِبِ، وَوَعَدَهُمْ أَسْنَىٰ الْمَوَاهِبِ.

فَلَوْ أَنْفَقَ الْعَبْدُ جَوَاهِرَ عُمُرِهِ فِي هَذَا التَّدَبُّرِ؛ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ كَثِيرًا فِي جَنْبِ مَا هُوَ أَفْضَلُ الْمَطَالِبِ، وَأَعْظَمُ الْمَقَاصِدِ، وَأَصْلُ الْأُصُولِ كُلِّهَا، وَقَاعِدَةُ أَسَاسِ السَّعَادَةِ فِي الدَّارَيْنِ، وَصَلَاحُ أُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَكَانَتْ حَيَاةُ الْعَبْدِ زَاهِرَةً بِالْهُدَىٰ وَالْخَيْرِ وَالرَّحْمَةِ، وَطِيبِ الْحَيَاةِ، وَالْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ»[1].

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-[2]: «لَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ وَأَقْرَبَ إِلَىٰ نَجَاتِهِ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَإِطَالَةِ التَّأَمُّلِ، وَجَمْعِ الْفِكْرِ

---

(١) جزء من مقدمة «**القواعد الحسان لتفسير القرآن**» ضمن مجموع مؤلفات الشيخ السعدي: ٣/ ٣٣٥.

(٢) «**مدارج السالكين**»: (١/ ٤٥٠).

عَلَىٰ مَعَانِي آيَاتِهِ؛ فَإِنَّهَا تُطْلِعُ الْعَبْدَ عَلَىٰ مَعَالِمِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ بِحَذَافِيرِهِمَا، وَعَلَىٰ طُرُقَاتِهِمَا، وَأَسْبَابِهِمَا، وَغَايَاتِهِمَا، وَثَمَرَاتِهِمَا، وَمَآلِ أَهْلِهِمَا، وَتَتُلُّ فِي يَدِهِ -أَيْ: تَجْعَلُ مُسْتَقِرًّا فِي يَدِهِ- مَفَاتِيحَ كُنُوزِ السَّعَادَةِ وَالْعُلُومِ النَّافِعَةِ.

وَتُثَبِّتُ قَوَاعِدَ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ، وَتُشَيِّدُ بُنْيَانَهُ، وَتُوَطِّدُ[1] أَرْكَانَهُ، وَتُرِيهِ صُورَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ فِي قَلْبِهِ، وَتُحْضِرُهُ بَيْنَ الْأُمَمِ، وَتُرِيهِ أَيَّامَ اللهِ فِيهِمْ.

وَتُبَصِّرُهُ مَوَاقِعَ الْعِبَرِ، وَتُشْهِدُهُ عَدْلَ اللهِ وَفَضْلَهُ، وَتُعَرِّفُهُ ذَاتَهُ، وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَأَفْعَالَهُ، وَمَا يُحِبُّهُ وَمَا يُبْغِضُهُ، وَصِرَاطَهُ الْمُوصِلَ إِلَيْهِ، وَمَا لِسَالِكِيهِ بَعْدَ الْوُصُولِ وَالْقُدُومِ عَلَيْهِ، وَقَوَاطِعَ الطَّرِيقِ وَآفَاتِهَا.

وَتُعَرِّفُهُ النَّفْسَ وَصِفَاتِهَا، وَمُفْسِدَاتِ الْأَعْمَالِ وَمُصَحِّحَاتِهَا، وَتُعَرِّفُهُ طَرِيقَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، وَأَعْمَالَهُمْ، وَأَحْوَالَهُمْ، وَسِيمَاهُمْ، وَمَرَاتِبَ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَهْلِ الشَّقَاوَةِ، وَأَقْسَامَ الْخَلْقِ، وَاجْتِمَاعَهُمْ فِيمَا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ، وَافْتِرَاقَهُمْ فِيمَا يَفْتَرِقُونَ فِيهِ.

وَفِي تَأَمُّلِ الْقُرْآنِ، وَتَدَبُّرِهِ، وَتَفَهُّمِهِ أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا ذُكِرَ مِنَ الْحِكَمِ وَالْفَوَائِدِ.

---

(١) «تُوَطِّدُ»، أَي: تُثَبِّتُ.

انظر «**لسان العرب**»: (٣/ ٤٦١، مادة: وطد).

وَبِالْجُمْلَةِ؛ فَهُوَ أَعْظَمُ الْكُنُوزِ، طِلَّسْمُهُ -أَيْ: الْمُزِيلُ لِغُمُوضِهِ، الْمُوَضِّحُ لِمَعَانِيهِ، الْمُفَسِّرُ لِمُبْهَمِهِ- الْغَوْصُ بِالْفِكْرِ إِلَىٰ قَرَارِ مَعَانِيهِ».

فَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ نَتَعَامَلَ مَعَ الْقُرْآنِ؛ خَاصَّةً فِي الشَّهْرِ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ الْقُرْآنَ؛ وَإِلَّا مَا اسْتَفَدْنَا مِنْهُ مَا نَرْجُوهُ، وَمَا حَقَّقْنَا مِنْهُ مَا نَطْلُبُهُ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ.(*).

إِنَّ مِمَّا تَزْكُو بِهِ النَّفْسُ، وَيَزِيدُ بِهِ الْإِيمَانُ: الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ، وَقَدْ جَعَلَهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مَوْصُولَةً، وَجَعَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِهَذِهِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي افْتَرَضَ عَلَيْنَا وَالَّتِي نَدَبَ إِلَيْهَا نَبِيُّنَا ﷺ؛ جَعَلَ لَهَا مَرْدُودًا فِي تَزْكِيَةِ النَّفْسِ وَفِي تَطْهِيرِهَا، وَبُعْدِهَا عَمَّا يُشِينُهَا دُنْيَا وَآخِرَةً.

وَمَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ بِشَيْءٍ إِلَىٰ اللهِ بِمِثْلِ كَلَامِهِ، الْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ، وَكَلَامُ اللهِ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْقُرْآنِ وَكَلَامِ النَّاسِ كَالْفَرْقِ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ، فَمَنْ قَدَّرَ الْقُرْآنَ قَدْرَهُ، وَمَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فَأَشْبَعَ بِهِ قَلْبَهُ وَنَفْسَهُ؛ زَكَّاهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.(*/٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «شَأْنُ الْقُرْآنِ فِي رَمَضَانَ» - الْجُمُعَة ٢١ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٨هـ - ١٦-٦-٢٠١٧م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ «خُطْبَةِ عِيدِ الْفِطْرِ ١٤٣٤هـ: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا» - الْخَمِيسُ ١ مِنْ شَوَّالٍ ١٤٣٤هـ| ٨-٨-٢٠١٣م.

وَإِنَّ مِنْ أَعْمَالِ هَذَا الشَّهْرِ: الِاجْتِهَادَ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ؛ فَقَدْ «كَانَ جِبْرِيلُ يُدَارِسُ النَّبِيَّ ﷺ الْقُرْآنَ فِي رَمَضَانَ»(١). (*).

فَعَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُقْبِلُوا عَلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِتِلَاوَةِ كِتَابِهِ الْعَظِيمِ، وَالتَّفَقُّهِ فِي مَرَامِيهِ، وَالنَّظَرِ فِي زَوَاجِرِهِ، وَالِاتِّعَاظِ بِمَوَاعِظِهِ، وَتَطْبِيقِ أَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَالْقِيَامِ عَلَيْهِ، مَعَ الصَّبْرِ عَلَىٰ الْأَذَىٰ فِيهِ؛ لِأَنَّ هَذَا الشَّهْرَ هُوَ شَهْرُ الْقُرْآنِ، أَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِيهِ الْقُرْآنَ، فَهَذَا شَهْرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

وَالرَّسُولُ ﷺ كَانَ يَأْتِيهِ جِبْرِيلُ عليه السلام فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي رَمَضَانَ؛ لِيُدَارِسَهُ الْقُرْآنَ، كَمَا أَخْبَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ -وَفِي رِوَايَةٍ بِالنَّصْبِ: أَجْوَدَ(٣)- مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ؛ إِذْ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ،

---

(١) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: (١/ ٣٠، رقم ٦)، ومسلم في «**الصحيح**»: (٤/ ١٨٠٣، رقم ٢٣٠٨)، من حديث: ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ...**».

وفي رواية لهما: «...، **إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ فِي رَمَضَانَ حَتَّىٰ يَنْسَلِخَ، فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْقُرْآنَ**،...».

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ بِتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ مِنْ خُطْبَة: «تَطْهِيرُ الْقَلْبِ فِي رَمَضَانَ» - الْجُمُعَةُ ٢ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٦هـ| ١٩ -٦ - ٢٠١٥م.

(٣) انظر: «**المفهم**» للقرطبي: (٦/ ١٠٢، رقم ٢٢٢١)، وشرح النووي علىٰ «**صحيح مسلم**»: (١٥/ ٦٩)، وقال: «وَالرَّفْعُ أَصَحُّ وَأَشْهَرُ».

وَكَانَ جِبْرِيلُ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي رَمَضَانَ، فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ؛ فَلَرَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ ﷺ»[١].(*).

وَهَذِهِ جُمْلَةٌ مِنَ الدُّرُوسِ وَالْعِظَاتِ مِنْ تَفْسِيرِ آيَاتِ كِتَابِ اللهِ الْعَظِيمِ، نَسْأَلُ اللهَ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ- أَنْ يُبَارِكَ لَنَا فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

اللَّهُمَّ افْتَحْ لَنَا فِي الْقُرْآنِ فَتْحًا مُبَارَكًا.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصحَابِهِ أَجمَعِينَ.(*/٢).

(١) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: (١/ ٣٠، رقم ٦)، ومسلم في «**الصحيح**»: (٤/ ١٨٠٣، رقم ٢٣٠٨).

وفي رواية لهما: «...، **إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ فِي رَمَضَانَ حَتَّىٰ يَنْسَلِخَ، فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْقُرْآنَ**،...».

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ بِتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ مِنْ خُطْبَة: «عَلَىٰ أَبْوَابِ رَمَضَانَ» - الْجُمُعَةُ ٢٥ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٣١هـ| ٦-٨-٢٠١٠م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «شَرَفُ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ ٤» - خُطْبَةُ الْجُمُعَةِ ٢٠ مِنْ رَجَبٍ ١٤٢٣هـ| ٢٧-٩-٢٠٠٢م.

الدَّرْسُ الْأَوَّلُ:

رَمَضَانُ شَهْرُ الْقُرْآنِ وَالصِّيَامِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَقَدْ شَهِدَ شَهْرُ رَمَضَانَ العَدِيدَ مِنَ الأَحْدَاثِ الفَارِقَةِ فِي مَسِيرَةِ التَّارِيخِ الإِنْسَانِيِّ عَامَّةً، وَالإِسْلَامِيِّ خَاصَّةً، وَمِنْ ذَلِكَ:

إِنَّ شَهْرَ رَمَضَانَ هُوَ شَهْرُ الْأَحْدَاثِ الْجِسَامِ، وَالِانْتِصَارَاتِ الْعِظَامِ، وَمِنْ أَكْبَرِ الْأَحْدَاثِ الَّتِي شَهِدَهَا الْعَالَمُ -إِنْ لَمْ يَكُنْ أَكْبَرَهَا-: بَدْءُ نُزُولِ الْوَحْيِ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَقَدْ بَدَأَ ذَلِكَ النُّزُولُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدِ اعْتَادَ فِي رَمَضَانَ مِنْ كُلِّ عَامٍ أَنْ يَذْهَبَ إِلَىٰ غَارِ حِرَاءٍ بِمَكَّةَ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَحَنَّثَ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، وَكَانَ يَأْخُذُ مَعَهُ ﷺ مَا تَيَسَّرَ مِنْ زَادٍ(١).

فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْقُرْآنَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَبَدَأَ الْوَحْيُ الْمَعْصُومُ الَّذِي غَيَّرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهَدْيِهِ الدُّنْيَا كُلَّهَا، وَأَخْرَجَ بِهِ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ؛ بَدَأَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ(*): ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]؛

---

(١) أخرج البخاري في «**الصحيح**»: (١/ ٢٢، رقم ٣)، ومسلم في «**الصحيح**»: (١/ ١٣٩، رقم ١٦٠)، من حديث: عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ، أَنَّهَا قَالَتْ:
«أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ- اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّىٰ جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ،...» الحديث.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ خُطْبَة: «حَدَثَ في رَمَضَان - الجُمُعَة ١٠ مِن رَمَضَان ١٤٣١هـ، المُوَافِق ٢٠-٨-٢٠١٠م.

«أَيِ: الصَّوْمُ الْمَفْرُوضُ عَلَيْكُمْ هُوَ شَهْرُ رَمَضَانَ، الشَّهْرُ الْعَظِيمُ الَّذِي حَصَلَ لَكُمْ فِيهِ مِنَ اللهِ الْفَضْلُ الْعَظِيمُ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الْمُشْتَمِلُ عَلَىٰ الْهِدَايَةِ لِمَصَالِحِكُمُ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، وَتَبْيِينِ الْحَقِّ بِأَوْضَحِ بَيَانٍ، وَفِيهِ الْفُرْقَانُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْهُدَىٰ وَالضَّلَالِ، وَأَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَهْلِ الشَّقَاوَةِ.

فَحَقِيقٌ بِشَهْرٍ هَذَا فَضْلُهُ، وَهَذَا إِحْسَانُ اللهِ عَلَيْكُمْ فِيهِ أَنْ يَكُونَ مَوْسِمًا لِلْعِبَادِ مَفْرُوضًا فِيهِ الصِّيَامُ»(١). (*).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

«إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ فِي لَيْلَةِ الشَّرَفِ وَالْفَضْلِ»(٣)، وَتَقْدِيرِ الْأُمُورِ وَالْأَحْكَامِ وَالْأَرْزَاقِ وَالْآجَالِ الَّتِي يُظْهِرُهَا اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ، وَيَأْمُرُهُمْ بِتَنْفِيذِهَا.

«وَلَيْلَةُ الْقَدْرِ هِيَ إِحْدَىٰ لَيَالِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ»(٤)، قَدْ أَخْفَاهَا اللهُ فِي الْعَشْرِ؛ لِيَجْتَهِدَ الْمُؤْمِنُونَ الْعَابِدُونَ فِي الْتِمَاسِهَا طَوَالَ هَذِهِ اللَّيَالِي؛ حِرْصًا عَلَىٰ اغْتِنَامِ بَرَكَاتِهَا.(*/٢).

---

(١) «**تيسير الكريم الرحمن**»: (ص ٨٦).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «دَعْوَةُ الْإِخْوَانِ لِلتَّوْبَةِ فِي رَمَضَانَ» - الْجُمُعَةُ ٢٥ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٣٦هـ| ١٢-٦-٢٠١٥م.

(٣) «**التفسير الميسر**»: (ص ٥٩٨).

(٤) المصدر السابق.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [القدر: ١].

فَهَذَانِ مَوْضِعَانِ دَلَّ فِيهِمَا رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ أَنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ بَدْءًا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ.

وَهَذَا الْحَدَثُ الْفَرِيدُ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا كَانَ فَارِقًا بَيْنَ عَهْدَيْنِ؛ بَيْنَ مَا قَبْلَ الْوَحْيِ الْمُنَزَّلِ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ رِسَالَةَ الرَّسُولِ ﷺ هِيَ آخِرُ رِسَالَاتِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ.(*).

إِنَّ رَمَضَانَ هُوَ شَهْرُ الصِّيَامِ وَالْقُرْآنِ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة: ١٨٣].

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللهَ وَرَسُولَهُ، وَعَمِلُوا بِشَرْعِهِ؛ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الصِّيَامَ»(٢) بِالْإِمْسَاكِ عَنِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْجِمَاعِ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَىٰ غُرُوبِ الشَّمْسِ مَعَ النِّيَّةِ، «كَمَا فُرِضَ الصِّيَامُ عَلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ»(٣)؛ رَغْبَةَ أَنْ تَخْتَارُوا بِإِرَادَتِكُمُ الْعَمَلَ بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ، فَتَتَّقُونَ بِذَلِكَ عِقَابَ اللهِ عَلَىٰ الْمُخَالَفَةِ، وَتَنْتَظِمُونَ فِي زُمْرَةِ الْمُتَّقِينَ.

﴿ **أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ١٨٤].

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ خُطْبَةٍ: «حَدَثَ فِي رَمَضَانَ» - الْجُمُعَةُ ١٠ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣١هـ| ٢٠-٨-٢٠١٠م.

(٢) «**التفسير الميسر**»: (ص ٢٨) بتصرف يسير.

(٣) المصدر السابق.

«فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَصُومُوا أَيَّامًا مُقَدَّرَاتٍ قَلِيلَاتٍ، وَلَمْ يَفْرِضْ عَلَيْكُمْ صِيَامًا شَاقًّا مُضْنِيًا، يَأْخُذُ قِسْطًا كَبِيرًا مِنْ عُمُرِكُمْ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا، أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَأَفْطَرَ؛ فَالْوَاجِبُ عَلَيْهِ مَتَىٰ بَرِأَ مِنْ مَرَضِهِ، أَوِ انْقَطَعَ مِنْ سَفَرِهِ: صِيَامُ أَيَّامٍ بِعَدَدِ مَا أَفْطَرَ فِيهِ مِنْ أَيَّامِ رَمَضَانَ.

وَعَلَىٰ الَّذِينَ يَتَكَلَّفُونَ الصِّيَامَ، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ مَشَقَّةً غَيْرَ مُحْتَمَلَةٍ -كَالشَّيْخِ الْكَبِيرِ السِّنِّ، وَالْمَرِيضِ الَّذِي لَا يُرْجَىٰ شِفَاؤُهُ- فِدْيَةٌ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ يُفْطِرُهُ، وَهِيَ طَعَامُ مِسْكِينٍ، فَمَنْ أَطْعَمَ أَكْثَرَ مِنْ مِسْكِينٍ، أَوْ زَادَ عَلَىٰ قَدْرِ الْوَاجِبِ؛ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ.

وَصِيَامُكُمْ -لَوْ تَحَمَّلْتُمْ فِي الصِّيَامِ مَشَقَّةً كَبِيرَةً غَيْرَ ضَارَّةٍ بِصِحَّتِكُمْ-؛ صِيَامُكُمْ حِينَئِذٍ خَيْرٌ لَكُمْ مِنَ الْإِفْطَارِ وَالْفِدْيَةِ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا أَعَدَّ اللهُ لَكُمْ مِنْ أَجْرٍ عَظِيمٍ يَكُونُ لِلصَّائِمِينَ»(١).

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وَقْتُ صِيَامِكُمْ: شَهْرُ رَمَضَانَ، وَسَبَبُ تَخْصِيصِهِ بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ الْعَظِيمَةِ: نُزُولُ الْقُرْآنِ فِيهِ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ، أُنْزِلَ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، ثُمَّ نَزَلَ مُنَجَّمًا مُفَرَّقًا خِلَالَ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً عَلَىٰ حَسَبِ الْحَاجَةِ وَالْوَقَائِعِ.

---

(١) «التفسير الميسر»: (ص ٢٨)، بتصرف يسير.

وَمِنْ صِفَةِ هَذَا الْقُرْآنِ: أَنَّهُ هُدًىٰ لِلنَّاسِ إِلَىٰ الْحَقِّ، وَطَرِيقِ نَجَاتِهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ، وَهَذَا الْهُدَىٰ جَاءَ فِي آيَاتٍ وَاضِحَاتٍ كَاشِفَاتٍ وَجْهَ الْحَقِّ وَسَبِيلَ الرَّشَادِ، وَهَذَا الْهُدَىٰ فَارِقٌ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، يُزِيلُ الِالْتِبَاسَ، وَيُمَيِّزُ بَيْنَ الْمُخْتَلِطَاتِ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ، وَالْخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمَا؛ وَقَعَ فِي الِالْتِبَاسِ، وَتَدَاخَلَتْ عَلَيْهِ الْأُمُورُ، وَاخْتَلَطَتْ عَلَيْهِ الْمُتَشَابِهَاتُ الْمُتَقَارِبَاتُ.

فَمَنْ كَانَ حَاضِرًا مُقِيمًا فَأَدْرَكَهُ الشَّهْرُ بِظُهُورِ هِلَالِ أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْهُ؛ فَلْيَصُمْ فِي أَيَّامِهِ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا مَرَضًا يُؤَدِّي إِلَىٰ ضَرَرٍ فِي النَّفْسِ، أَوْ زِيَادَةِ عِلَّةٍ وَاشْتِدَادِ وَجَعٍ، أَوْ كَانَ مُسَافِرًا سَفَرًا مُبَاحًا مَسَافَةَ قَصْرِ الصَّلَاةِ، وَيُجْهِدُهُ الصَّوْمُ فَأَفْطَرَ؛ فَعَلَيْهِ عِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ.

يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ التَّسْهِيلَ فِي جَمِيعِ التَّكَالِيفِ الدِّينِيَّةِ، وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ، وَمِنْهَا: الصَّوْمُ، وَقَدْ حَقَّقَ اللهُ مُرَادَهُ، فَأَنْزَلَ أَحْكَامَ التَّيْسِيرِ بِإِبَاحَةِ الْفِطْرِ لِلْمُسَافِرِ وَالْمَرِيضِ، وَشَرَعَ لَكُمْ فَرِيضَةَ الصِّيَامِ؛ لِتُكْمِلُوا عِدَّةَ أَيَّامِ الصِّيَامِ الْمَفْرُوضِ، فَلَا تَنْقُصُوا مِنْهَا شَيْئًا، وَلِتُكْمِلُوا -أَيْضًا- عَدَدَ الْأَيَّامِ الَّتِي أَفْطَرْتُمْ فِيهَا بِعُذْرِ السَّفَرِ وَالْمَرَضِ، وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ وَلِتُعَظِّمُوهُ فِي نُفُوسِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ عَلَىٰ مَا أَرْشَدَكُمْ إِلَىٰ طَاعَتِهِ، وَوَفَّقَكُمْ لِلْقِيَامِ بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ، وَمَا مَنَحَكُمْ مِنْ عَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ، وَلِكَيْ تُقَدِّمُوا بِالصِّيَامِ -الَّذِي تَصُومُونَهُ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا- بَعْضَ الشُّكْرِ لَهُ -تَعَالَىٰ- عَلَىٰ جَلَائِلِ نِعَمِهِ، وَعَظِيمِ فَضْلِهِ عَلَيْكُمْ.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» -[البقرة: ١٨٣-١٨٥].

إِنَّ الصِّيَامَ مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ التَّقْوَىٰ، قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-(١): «يُخْبِرُ تَعَالَىٰ بِمَا مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ؛ بِأَنَّهُ فَرَضَ عَلَيْهِمُ الصِّيَامَ كَمَا فَرَضَهُ عَلَىٰ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْأَوَامِرِ الَّتِي هِيَ مَصْلَحَةٌ لِلْخَلْقِ فِي كُلِّ زَمَانٍ.

وَفِيهِ تَنْشِيطٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ؛ بِأَنَّهُ يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تُنَافِسُوا غَيْرَكُمْ فِي تَكْمِيلِ الْأَعْمَالِ، وَالْمُسَارَعَةِ إِلَىٰ صَالِحِ الْخِصَالِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْأُمُورِ الثَّقِيلَةِ الَّتِي [خُصِّصْتُمْ](٢) بِهَا.

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَىٰ حِكْمَتَهُ فِي مَشْرُوعِيَّةِ الصِّيَامِ؛ فَقَالَ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ فَإِنَّ الصِّيَامَ مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ التَّقْوَىٰ؛ لِأَنَّ فِيهِ امْتِثَالَ أَمْرِ اللهِ، وَاجْتِنَابَ نَهْيِهِ.

فَمِمَّا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ التَّقْوَىٰ: أَنَّ الصَّائِمَ يَتْرُكُ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَكْلِ، وَالشُّرْبِ، وَالْجِمَاعِ، وَنَحْوِهَا، الَّتِي تَمِيلُ إِلَيْهَا نَفْسُهُ، مُتَقَرِّبًا بِذَلِكَ إِلَىٰ اللهِ، رَاجِيًا بِتَرْكِهَا ثَوَابَهُ، فَهَذَا مِنَ التَّقْوَىٰ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الصَّائِمَ يُدَرِّبُ نَفْسَهُ عَلَىٰ مُرَاقَبَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَيَتْرُكُ مَا تَهْوَىٰ نَفْسُهُ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ؛ لِعِلْمِهِ بِاطِّلَاعِ اللهِ عَلَيْهِ.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن»: (ص ٨٦).

(٢) في الأصل: [اختصَّيتم].

وَمِنْهَا: أَنَّ الصِّيَامَ يُضَيِّقُ مَجَارِيَ الشَّيْطَانِ؛ فَإِنَّهُ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَىٰ الدَّمِ، فَبِالصِّيَامِ يَضْعُفُ نُفُوذُهُ، وَتَقِلُّ مِنْهُ الْمَعَاصِي.

وَمِنْهَا: أَنَّ الصَّائِمَ فِي الغَالِبِ تَكْثُرُ طَاعَتُهُ، وَالطَّاعَاتُ مِنْ خِصَالِ التَّقْوَىٰ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الْغَنِيَّ إِذَا ذَاقَ أَلَمَ الجُوعِ؛ أَوْجَبَ لَهُ ذَلِكَ مُوَاسَاةَ الْفُقَرَاءِ الْمُعْدِمِينَ، وَهَذَا مِنْ خِصَالِ التَّقْوَىٰ».(*).

عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي شَغْلِ الْأَوْقَاتِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي أَيَدُورُ الْعَامُ دَوْرَتَهُ حَتَّىٰ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ مِنْ قَابِلٍ، أَمْ يَكُونُ مُغَيَّبًا تَحْتَ طَبَقَاتِ التُّرَابِ؟!! فَذَلِكَ غَيْبٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ.

وَعَلَىٰ الْمَرْءِ السَّعْيُ وَبَذْلُ الْمَجْهُودِ فِيمَا آتَاهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنَ الْأَسْبَابِ، رَاجِيًا مِنَ اللهِ جَلَّوَعَلَا الْقَبُولَ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصحَابِهِ أَجمَعِينَ.(*/٢).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «دَعْوَةُ الْإِخْوَانِ لِلتَّوْبَةِ فِي رَمَضَانَ» - الْجُمُعَةُ ٢٥ مِنْ شَعْبَان ١٤٣٦هـ| ١٢-٦-٢٠١٥م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «رَمَضَانُ كَيْفَ نَحْيَاهُ؟» - الْجُمُعَةُ ١٥ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٣هـ| ٣- ٨- ٢٠١٢م.

الدَّرْسُ الثَّانِي:

أُصُولُ التَّوْحِيدِ وَمَعَالِمُه

فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

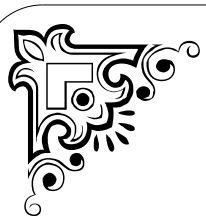

بَيْنَ يَدَيْ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

«فَسُورَةُ الْفَاتِحَةِ مَكِّيَّةٌ، وَآيَاتُهَا سَبْعٌ بِالْإِجْمَاعِ، وَتُسَمَّىٰ الْفَاتِحَةَ؛ لِافْتِتَاحِ الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ بِهَا؛ حَيْثُ إِنَّهَا أَوَّلُ الْقُرْآنِ فِي التَّرْتِيبِ، لَا فِي النُّزُولِ.

وَهِيَ عَلَىٰ قِصَرِهَا وَوَجَازَتِهَا قَدْ حَوَتْ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَاشْتَمَلَتْ عَلَىٰ مَقَاصِدِهِ الرَّئِيسَةِ بِالْإِجْمَالِ، فَهِيَ تَتَنَاوَلُ أُصُولَ الدِّينِ وَفُرُوعَهُ؛ تَتَنَاوَلُ الْعَقِيدَةَ، وَالْعِبَادَةَ، وَالتَّشْرِيعَ، وَالِاعْتِقَادَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْإِيمَانَ بِصِفَاتِ اللهِ الْحُسْنَىٰ، وَإِفْرَادَهُ بِالْعِبَادَةِ، وَالِاسْتِعَانَةِ، وَالدُّعَاءِ، وَالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِ جَلَّوَعَلَا بِطَلَبِ الْهِدَايَةِ إِلَىٰ الدِّينِ الْحَقِّ وَإِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ بِالتَّثْبِيتِ عَلَىٰ الْإِيمَانِ، وَنَهْجَ سَبِيلِ الصَّالِحِينَ، وَتَجَنُّبَ طَرِيقِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ.

وَفِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ: الْإِخْبَارُ عَنْ قِصَصِ الْأُمَمِ السَّابِقِينَ، وَالِاطِّلَاعُ عَلَىٰ مَعَارِجِ السُّعَدَاءِ وَمَنَازِلِ الْأَشْقِيَاءِ الْمُعَذَّبِينَ، وَفِيهَا التَّعَبُّدُ بِأَمْرِ اللهِ -سُبْحَانَهُ- وَنَهْيِهِ، إِلَىٰ غَيْرِ مَا هُنَالِكَ مِنْ مَقَاصِدَ وَأَغْرَاضٍ وَأَهْدَافٍ، فَسُورَةُ الْفَاتِحَةِ كَالْأُمِّ بِالنِّسْبَةِ لِبَاقِي السُّوَرِ الْكَرِيمَةِ؛ وَلِهَذَا تُسَمَّىٰ أُمَّ الْكِتَابِ؛ لِأَنَّهَا جَمَعَتْ مَقَاصِدَهُ الرَّئِيسَةَ.

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ لَهَا أَسْمَاءٌ كَثِيرَةٌ؛ تُسَمَّىٰ الْفَاتِحَةَ، وَأُمَّ الْكِتَابِ، وَالسَّبْعَ الْمَثَانِيَ، وَالشَّافِيَةَ، وَالْوَافِيَةَ، وَالْكَافِيَةَ، وَالْأَسَاسَ، وَالْحَمْدَ.

وَقَدْ عَدَّ الْإِمَامُ الْقُرْطُبِيُّ(١)، وَذَكَرَ أَنَّ لِهَذِهِ السُّورَةِ اثْنَيْ عَشَرَ اسْمًا»(٢).(*).

رَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ(٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ فِي أُمِّ الْقُرْآنِ: «**هِيَ أُمُّ الْقُرْآنِ، وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَهِيَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ**».(*/٢).

❀❀❀

(١) «**الجامع لأحكام القرآن**»: (١/ ١١١-١١٣).

(٢) «**صفوة التفاسير**»: (ص٢٤) بتصرف يسير.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ].

(٤) أخرجه أحمد في «**المسند**»: (٢/ ٤٤٨، رقم٩٧٨٨)، وأخرجه أيضا البخاري في «**الصحيح**»: كتاب التفسير: سورة الحجر: باب قوله ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم، (٤٧٠٤)، بمثله.

وفي رواية لأحمد: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْزَلَ اللهُ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَلَا فِي الزَّبُورِ، وَلَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلَهَا، وَإِنَّهَا السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيتُ**».

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةِ: «تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ» (تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ): السَّبْتُ ٢٥ مِنْ شَوَّالٍ ١٤٣٧هـ| ٣٠-٧-٢٠١٦م.

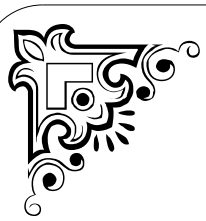

مِنْ فَضَائِلِ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ

لَقَدْ وَرَدَ فِي فَضْلِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ كَثِيرٌ مِنَ الْأَحَادِيثِ، ذَكَرَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ بَعْضَهَا، فَقَالَ[1]: «رَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مُسْنَدِهِ»[2] عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ أُصَلِّي، فَدَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمْ أُجِبْهُ حَتَّىٰ صَلَّيْتُ، قَالَ: فَأَتَيْتُهُ».

فَقَالَ: «**مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي؟**».

قَالَ: قُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي».

قَالَ: «**أَلَمْ يَقُلِ اللهُ تَعَالَىٰ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]؟ ثُمَّ قَالَ: **لَأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ**».

---

(١) «**تفسير القرآن العظيم**»: (١/ ١٠٣).

(٢) أخرجه أحمد في «**المسند**»: (٣/ ٤٥٠، رقم١٥٧٣٠) و(٤/ ٢١١، رقم١٧٨٥١)، وأخرجه أيضا البخاري في «**الصحيح**»: كتاب التفسير: باب ما جاء في فاتحة الكتاب، (٤٤٧٤)، وأبو داود في «**السنن**»: كتاب الصلاة: باب فاتحة الكتاب، (١٤٥٨)، والنسائي في «**المجتبىٰ**»: كتاب الافتتاح: تأويل قوله ولقد آتيناك سبعا من المثاني، والقرآن العظيم، (٩١٣)، وابن ماجه في «**السنن**»: كتاب الأدب: باب ثواب القرآن، (٣٧٨٥).

قَالَ: «فَأَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ؛ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّكَ قُلْتَ: لَأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ».

قَالَ: «**نَعَمْ**، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ**». وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ مَاجَه.

رَوَىٰ الْبُخَارِيُّ[1] **فِي «الصَّحِيحِ»: كِتَابُ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ» عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ** رضي الله عنه **قَالَ**: «كُنَّا فِي مَسِيرٍ لَنَا، فَنَزَلْنَا، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ فَقَالَتْ: إِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ سَلِيمٌ -أَيْ: لَدِيغٌ-، وَإِنَّ نَفَرَنَا غُيَّبٌ؛ فَهَلْ مِنْكُمْ رَاقٍ؟

قَالَ: فَقَامَ مَعَهَا رَجُلٌ مَا كُنَّا نَأْبِنُهُ بِرُقْيَةٍ -نَذْكُرُهُ بِرُقْيَةٍ-، فَرَقَاهُ، فَبَرَأَ، فَأَمَرَ لَهُ بِثَلَاثِينَ شَاةً، وَسَقَانَا لَبَنًا، فَلَمَّا رَجَعَ؛ قُلْنَا لَهُ: أَكُنْتَ تُحْسِنُ رُقْيَةً، أَوْ كُنْتَ تَرْقِي؟

فَقَالَ: لَا، مَا رَقَيْتُ إِلَّا بِأُمِّ الْكِتَابِ.

قُلْنَا: لَا تُحْدِثُوا شَيْئًا حَتَّىٰ نَأْتِيَ وَنَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ؛ ذَكَرْنَاهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**وَمَا كَانَ يُدْرِيهِ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ**».

---

(١) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: كتاب فضائل القرآن: باب فضل فاتحة الكتاب، (٥٠٠٧)، وأخرجه أيضا مسلم في «**الصحيح**»: كتاب السلام: باب جواز أخذ الأجرة علىٰ الرقية بالقرآن والأذكار، (٢٢٠١).

وزاد في رواية: «**قد أصبتم، اقسموا، واضربوا لي معكم سهما**» فضحك رسول الله ﷺ، وفي رواية: «**خذوا منهم،...**»، وفي أخرىٰ: «**أحسنتم...**».

وَرَوَىٰ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، وَالنَّسَائِيُّ فِي «سُنَنِهِ»(١) **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قَالَ**: «بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَعِنْدَهُ جَبْرَائِيلُ؛ إِذْ سَمِعَ نَقِيضًا(٢) فَوْقَهُ، فَرَفَعَ جِبْرِيلُ بَصَرَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَقَالَ: هَذَا بَابٌ قَدْ فُتِحَ مِنَ السَّمَاءِ، مَا فُتِحَ قَطُّ.

قَالَ: فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَأَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ قَدْ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةِ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَمْ تَقْرَأْ حَرْفًا مِنْهُمَا إِلَّا أُوتِيتَهُ(٣)». وَهَذَا لَفْظُ النَّسَائِيِّ، وَلِمُسْلِمٍ نَحْوُهُ.

وَأَمَّا قِرَاءَةُ الْفَاتِحَةِ فِي الصَّلَاةِ؛ فَقَدْ رَوَىٰ مُسْلِمٌ(٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ صَلَّىٰ صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا أُمَّ الْقُرْآنِ**(٥)؛ **فَهِيَ خِدَاجٌ** -ثَلَاثًا-، **غَيْرُ تَمَامٍ**».

فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: «إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ».

---

(١) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: كتاب صلاة المسافرين: باب فضل الفاتحة...، (٨٠٦)، والنسائي في «**المجتبىٰ**»: كتاب الافتتاح: فضل فاتحة الكتاب، (٩١٢).

(٢) «**نَقِيضًا**»، أَيْ: صَوْتًا كَصَوْتِ الْبَابِ إِذَا فُتِحَ.

(٣) كذا «أُوتِيتَهُ» في تفسير ابن كثير، ولفظ النسائي وكذا مسلم: «أُعْطِيتَهُ».

(٤) أخرج مسلم في «**الصحيح**»: كتاب الصلاة: باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، (٣٩٥)، والنسائي في «**المجتبىٰ**»: كتاب الافتتاح: ترك قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في فاتحة الكتاب، (٩٠٩).

(٥) كذا «أُمَّ الْقُرْآنِ» في تفسير ابن كثير، ولفظ مسلم: «بِأُمِّ الْقُرْآنِ».

فَقَالَ: «اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**قَالَ اللهُ ﷻ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ **قَالَ اللهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ **قَالَ اللهُ: أَثْنَىٰ عَلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؛ **قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي -وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي-، فَإِذَا قَالَ:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ **قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ **قَالَ اللهُ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**». وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ.

وَفِي لَفْظٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ، وَالنَّسَائِيِّ: «**فَنِصْفُهَا لِي، وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**».(*).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ» (تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ)،: السَّبْتُ ٢٥ مِنْ شَوَّالٍ ١٤٣٧هـ| ٣٠-٧-٢٠١٦م.

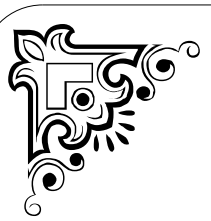

مَعَانِي آيَاتِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ١-٧].

«أَيْ: أَبْتَدِئُ بِكُلِّ اسْمٍ للهِ -تَعَالَىٰ-؛ لِأَنَّ لَفْظَ (اسْم) مُفْرَدٌ مُضَافٌ، فَيَعُمُّ جَمِيعَ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ؛ فَيَكُونُ الْعَبْدُ مُسْتَعِينًا بِرَبِّهِ وَبِكُلِّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ عَلَىٰ مَا يُنَاسِبُهُ مِنَ الْمَطَالِبِ، وَأَجَلُّ مَا يُسْتَعَانُ بِهِ عَلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ؛ وَأَجَلُّ ذَلِكَ: الِاسْتِعَانَةُ عَلَىٰ قِرَاءَةِ كَلَامِ اللهِ، وَتَفَهُّمِ مَعَانِيهِ، وَالِاهْتِدَاءِ بِهَدْيِهِ.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾؛ (اللهُ): هُوَ الْمَأْلُوهُ الْمُسْتَحِقُّ لِإِفْرَادِهِ بِالْمَحَبَّةِ، وَالْخَوْفِ، وَالرَّجَاءِ، وَأَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ كُلِّهَا؛ لِمَا اتَّصَفَ بِهِ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَهِيَ الَّتِي تَدْعُو الْخَلْقَ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ، وَالتَّأَلُّهِ لَهُ.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]؛ اسْمَانِ دَالَّانِ عَلَىٰ أَنَّهُ -تَعَالَىٰ- ذُو الرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَعَمَّتْ كُلَّ مَخْلُوقٍ، وَكَتَبَ الرَّحْمَةَ الْكَامِلَةَ لِلْمُتَّقِينَ الْمُتَّبِعِينَ لِأَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، فَهَؤُلَاءِ لَهُمُ الرَّحْمَةُ الْمُطْلَقَةُ الْمُتَّصِلَةُ

بِالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ، وَمَنْ عَدَاهُمْ مَحْرُومٌ مِنْ هَذِهِ الرَّحْمَةِ الْكَامِلَةِ؛ لِأَنَّهُ الَّذِي دَفَعَ هَذِهِ الرَّحْمَةَ وَأَبَاهَا بِتَكْذِيبِهِ لِلْخَبَرِ، وَتَوَلِّيهِ عَنِ الْأَمْرِ؛ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ مِنَ الْقَوَاعِدِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا بَيْنَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا: مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِنَ الْإِيمَانِ بِأَسْمَاءِ اللهِ كُلِّهَا، وَصِفَاتِهِ جَمِيعِهَا، وَبِأَحْكَامِ تِلْكَ الصِّفَاتِ»(١). (*).

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

«يُخْبِرُ -تَعَالَىٰ- أَنَّ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْمَحَامِدِ مِنْ صِفَاتِ الْجَلَالِ وَالْكَمَالِ هِيَ لَهُ وَحْدَهُ دُونَ مَنْ سِوَاهُ؛ إِذْ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، وَخَالِقُهُ، وَمَالِكُهُ، وَأَنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَحْمَدَهُ وَنُثْنِيَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ»(٣). (*/٢).

«﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ الْحَمْدُ: هُوَ الثَّنَاءُ عَلَىٰ اللهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَبِأَفْعَالِهِ الدَّائِرَةِ بَيْنَ الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ، الْمُشْتَمِلَةِ عَلَىٰ الْحِكْمَةِ التَّامَّةِ؛ وَلَا بُدَّ فِي تَمَامِ حَمْدِ الْحَامِدِ مِنِ اقْتِرَانِ مَحَبَّةِ الْحَامِدِ لِرَبِّهِ، وَخُضُوعِهِ لَهُ، فَالثَّنَاءُ الْمُجَرَّدُ مِنْ مَحَبَّةٍ وَخُضُوعٍ لَيْسَ حَمْدًا كَامِلًا.

---

(١) «**تيسير اللطيف المنان**»: (ص٩-١٠).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «شَرْحُ تَيْسِيرِ اللَّطِيفِ الْمَنَّانِ فِي خُلَاصَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» (الْمُحَاضَرَةُ الْأُولَىٰ)، الْأَحَدُ ١٦ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٤هـ| ٢٢-٩-٢٠١٣م.

(٣) «**أيسر التفاسير**»: (١/ ١٣).

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الفاتحة: ٢].

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ الرَّبُّ: هُوَ الْمُرَبِّي جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِكُلِّ أَنْوَاعِ التَّرْبِيَةِ، فَهُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ، وَرَزَقَهُمْ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَهَذِهِ التَّرْبِيَةُ الْعَامَّةُ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ؛ بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ؛ بَلِ الْمُكَلَّفُونَ مِنْهُمْ وَغَيْرُهُمْ.

وَأَمَّا التَّرْبِيَةُ الْخَاصَّةُ لِأَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ؛ فَإِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ -أَيْ: مَعَ التَّرْبِيَةِ الْعَامَّةِ- يُرَبِّي إِيمَانَهُمْ فَيُكَمِّلُهُ لَهُمْ، وَيَدْفَعُ عَنْهُمُ الصَّوَارِفَ وَالْعَوَائِقَ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ صَلَاحِهِمْ وَسَعَادَتِهِمُ الْأَبَدِيَّةِ، وَتَيْسِيرِهِمْ لِلْيُسْرَىٰ، وَحِفْظِهِمْ مِنْ جَمِيعِ الْمَكَارِهِ.

وَكَمَا دَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ انْفِرَادِ الرَّبِّ بِالْخَلْقِ، وَالتَّدْبِيرِ، وَالْهِدَايَةِ، وَكَمَالِ الْغِنَىٰ؛ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَىٰ تَمَامِ فَقْرِ الْعَالَمِينَ إِلَيْهِ بِكُلِّ وَجْهٍ وَاعْتِبَارٍ، فَيَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ -بِلِسَانِ الْمَقَالِ وَلِسَانِ الْحَالِ- جَمِيعَ حَاجَاتِهِمْ، وَيَفْزَعُونَ إِلَيْهِ فِي مُهِمَّاتِهِمْ»[1].(*).

«﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ تَجِدُ تَحْتَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ إِثْبَاتَ كُلِّ كَمَالٍ لِلرَّبِّ -تَعَالَىٰ-؛ فِعْلًا، وَوَصْفًا، وَاسْمًا، وَتَنْزِيهَهُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَعَيْبٍ؛ فِعْلًا، وَوَصْفًا، وَاسْمًا، فَهُوَ مَحْمُودٌ فِي أَفْعَالِهِ وَأَوْصَافِهِ وَأَسْمَائِهِ، مُنَزَّهٌ عَنِ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ فِي أَفْعَالِهِ وَأَوْصَافِهِ وَأَسْمَائِهِ، فَأَفْعَالُهُ كُلُّهَا حِكْمَةٌ وَرَحْمَةٌ وَمَصْلَحَةٌ وَعَدْلٌ، لَا تَخْرُجُ عَنْ

---

(١) «**تيسير اللطيف المنان**»: (ص١٠).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «شَرْحُ تَيْسِيرِ اللَّطِيفِ الْمَنَّانِ فِي خُلَاصَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» (الْمُحَاضَرَةُ الْأُولَىٰ)، الْأَحَدُ ١٦ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٤هـ| ٢٢-٩-٢٠١٣م.

ذَلِكَ، وَأَوْصَافُهُ كُلُّهَا أَوْصَافُ كَمَالٍ وَنُعُوتُ جَلَالٍ، وَأَسْمَاؤُهُ كُلُّهَا حُسْنَىٰ، وَحَمْدُهُ قَدْ مَلَأَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا فِيهِمَا.

فَالْكَوْنُ كُلُّهُ نَاطِقٌ بِحَمْدِهِ.

ثُمَّ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ شُهُودُ تَفَرُّدِهِ -سُبْحَانَهُ- بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَأَنَّهُ كَمَا أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَخَالِقُهُمْ، وَرَازِقُهُمْ، وَمُدَبِّرُ أُمُورِهِمْ، وَمُوجِدُهُمْ، وَمُفْنِيهِمْ؛ فَهُوَ وَحْدَهُ إِلَهُهُمْ وَمَعْبُودُهُمْ، وَمَلْجَؤُهُمْ وَمَفْزَعُهُمْ عِنْدَ النَّوَائِبِ(١)، فَلَا رَبَّ غَيْرُهُ، وَلَا إِلَهَ سِوَاهُ»(٢).(*).

«﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]: اسْمَانِ وُصِفَ بِهِمَا اسْمُ الْجَلَالَةِ (اللهِ)، وَهُوَ ثَنَاءٌ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ-؛ لِاسْتِحْقَاقِهِ الْحَمْدَ كُلَّهُ»(٤).(*/٢).

«لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ عُبُودِيَّةٌ تَخُصُّهَا، وَهِيَ شُهُودُ عُمُومِ رَحْمَتِهِ وَسَعَتِهَا لِكُلِّ شَيْءٍ، وَأَخْذُ كُلِّ مَوْجُودٍ بِنَصِيبِهِ مِنْهَا؛ وَلَاسِيَّمَا الرَّحْمَةُ الْخَاصَّةُ الَّتِي أَقَامَتْ عَبْدَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي خِدْمَتِهِ يُنَاجِيهِ بِكَلَامِهِ، وَيَتَمَلَّقُهُ(٦)، وَيَسْتَرْحِمُهُ،

---

(١) «**النَّوَائِبُ**»: جَمْعُ نَائِبَة، وَهِيَ: مَا يَنوبُ الإنسانَ، أَيْ: يَنْزِل بِهِ مِنَ المِهمّات وَالْحَوَادِثِ.

(٢) «**الكلام علىٰ مسألة السماع**»: (ص٩٧-٩٨).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «التَّعَبُّدُ بِالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ فِي الصَّلَاةِ» - ٢٤ مِنْ رَجَبٍ ١٤٣٥هـ| ٢٣-٥-٢٠١٤م.

(٤) «**أيسر التفاسير**»: (١/ ١٣).

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الفاتحة: ٣].

(٦) «**التملُّق**»: التودد الشديد، والميم واللام والقاف أصل صحيح يدل علىٰ تجرد في الشيء ولين.

وَيَسْأَلُهُ هِدَايَتَهُ، وَرَحْمَتَهُ، وَإِتْمَامَ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ، فَهَذَا مِنْ رَحْمَتِهِ بِعَبْدِهِ، فَرَحْمَتُهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، كَمَا أَنَّ حَمْدَهُ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ»(١).(*).

«﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].. وَقَرَأَ نَافِعٌ: (مَلِكِ)، وَاللهُ -تَعَالَىٰ- حَقًّا هُوَ الْمَالِكُ وَالْمَلِكُ.

﴿مَٰلِكِ﴾: الْمَالِكُ: صَاحِبُ الْمُلْكِ، الْمُتَصَرِّفُ كَيْفَ يَشَاءُ، وَ(مَلِكِ): الْمَلِكُ: هُوَ ذُو السُّلْطَانِ، الْآمِرُ النَّاهِي، الْمُعْطِي الْمَانِعُ بِلَا مُمَانِعٍ وَلَا مُنَازِعٍ.

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾؛ يَوْمُ الدِّينِ: هُوَ يَوْمُ الْجَزَاءِ، وَيَوْمُ الْحِسَابِ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ؛ حَيْثُ يَجْزِي اللهُ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ»(٣).(*/٢).

«الْمَالِكُ: هُوَ مَنِ اتَّصَفَ بِالصِّفَاتِ الْعَظِيمَةِ الْكَامِلَةِ الَّتِي يَتَحَقَّقُ بِهَا الْمِلْكُ، الَّتِي مِنْ آثَارِهَا: أَنَّهُ يَأْمُرُ وَيَنْهَىٰ، وَيُثِيبُ وَيُعَاقِبُ، وَيَتَصَرَّفُ فِي الْعَالِمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ التَّصَرُّفَ التَّامَّ الْمُطْلَقَ بِالْأَحْكَامِ الْقَدَرِيَّةِ وَالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ،

---

(١) «**الكلام علىٰ مسألة السماع**»: (ص٩٨-٩٩).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «التَّعَبُّدُ بِالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ فِي الصَّلَاةِ» - ٢٤ مِنْ رَجَبٍ ١٤٣٥هـ| ٢٣-٥-٢٠١٤م.

(٣) «**أيسر التفاسير**»: (١/ ١٣).

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [الفاتحة: ٤].

وَأَحْكَامِ الْجَزَاءِ؛ فَلِهَذَا أَضَافَ مُلْكَهُ لِيَوْمِ الدِّينِ، مَعَ أَنَّهُ الْمَالِكُ الْمُطْلَقُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَإِنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي يَدِينُ اللهُ فِيهِ الْعِبَادَ بِأَعْمَالِهِمْ؛ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا، وَيُرَتِّبُ عَلَيْهَا جَزَاءَهَا، وَتُشَاهِدُ الْخَلِيقَةُ -مِنْ آثَارِ مُلْكِهِ وَعَظَمَتِهِ وَسَعَتِهِ، وَخُضُوعِ الْخَلَائِقِ كُلِّهَا لِعَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ، وَاسْتِوَاءِ الْخَلْقِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ طَبَقَاتِهِمْ فِي نُفُوذِ أَحْكَامِهِ عَلَيْهِمْ- مَا يَعْرِفُونَ بِهِ كَمَالَ مُلْكِهِ، وَعَظَمَةَ سُلْطَانِهِ»(١). (*).

«**فَمَعْنَىٰ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ**: تَمْجِيدٌ للهِ -تَعَالَىٰ- بِأَنَّهُ الْمَالِكُ لِكُلِّ مَا فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ حَيْثُ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا، وَالْمَلِكُ الَّذِي لَا مَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سِوَاهُ هُوَ اللهُ جَلَّوَعَلَا»(٣). (*/٢).

«وَالْعَبْدُ إِذَا قَالَ فِي الصَّلَاةِ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؛ شَهِدَ الْمَجْدَ الَّذِي لَا يَلِيقُ بِسِوَىٰ الْمَلِكِ الْحَقِّ الْمُبِينِ، فَيَشْهَدُ مَلِكًا قَاهِرًا قَدْ دَانَتْ لَهُ الْخَلِيقَةُ، وَعَنَتْ لَهُ الْوُجُوهُ، وَذَلَّتْ لِعَظَمَتِهِ الْجَبَابِرَةُ، وَخَضَعَ لِعِزَّتِهِ كُلُّ عَزِيزٍ، فَيَشْهَدُ بِقَلْبِهِ:

---

(١) «**تيسير اللطيف المنان**»: (ص١٠-١١).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «شَرْحُ تَيْسِيرِ اللَّطِيفِ الْمَنَّانِ فِي خُلَاصَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» (الْمُحَاضَرَةُ الْأُولَىٰ)، الْأَحَدُ ١٦ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٤هـ| ٢٢-٩-٢٠١٣م.

(٣) «**أيسر التفاسير**»: (١/ ١٣).

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [الفاتحة: ٤].

مَلِكًـــا عَلَـــىٰ عَـــرْشِ السَّـــمَاءِ مُهَيْمِنًـــا
لِعِزَّتِـــهِ تَعْنُـــو الْوُجُـــوهُ وَتَسْـــجُدُ[1]»[2].[*].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

«﴿إِيَّاكَ﴾: ضَمِيرُ نَصْبٍ يُخَاطَبُ بِهِ الْوَاحِدُ ﴿نَعْبُدُ﴾: نُطِيعُ مَعَ غَايَةِ الذُّلِّ لَكَ، وَالتَّعْظِيمِ لَكَ وَالْحُبِّ.

﴿نَسْتَعِينُ﴾: نَطْلُبُ عَوْنَكَ لَنَا عَلَىٰ طَاعَتِكَ، وَعَلَىٰ كُلِّ مَا يُهِمُّ الْعَبْدَ مِنْ أُمُورِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ»[4].[*/2].

---

(١) البيت من البحر الطويل للشاعر الجاهلي المشهور: أمية بن أبي الصّلت الثقفي، والبيت في ديوانه: (ص٣٩، القصيدة٢٤) بلفظ: «مليكٌ... مُهَيمِنٌ» من قصيدة دالية مشهورة، قيل: أنه قالها في أول المبعث يذكر فيها دين الإسلام ونبوة محمد ﷺ، وقد صدّقه النبي ﷺ في بعض شعره، يقول في مطلعها:

(لك الحمد والنعماء والملك ربّنا... فلا شيءَ أعلَىٰ منك جَدًّا ولا مجدُ)

انظر: «**سؤالات نافع**»: (٦١)، و«**جمهرة أشعار العرب**»: (ص٢٥)، و«**الزهرة**»: (ص١٤٦)، و«**نهاية الأرب في فنون الأدب**»: (١٣/ ٢٧٢).

(٢) «**كتاب الصلاة**»: (ص٣٤٩).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «التَّعَبُّدُ بِالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ فِي الصَّلَاةِ» - ٢٤ مِنْ رَجَبٍ ١٤٣٥هـ|٢٣-٥-٢٠١٤م.

(٤) «**أيسر التفاسير**»: (١/ ١٤).

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [الفاتحة: ٥].

«﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ أَيْ: نَخُصُّكَ يَا رَبَّنَا وَحْدَكَ بِالْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ، فَلَا نَعْبُدُ غَيْرَكَ، وَلَا نَسْتَعِينُ بِسِوَاكَ.

فَالْعِبَادَةُ: اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ.

فَهِيَ الْقِيَامُ بِعَقَائِدِ الْإِيمَانِ، وَأَخْلَاقِهِ، وَأَعْمَالِهِ؛ مَحَبَّةً للهِ، وَخُضُوعًا لَهُ.

وَالِاسْتِعَانَةُ: هِيَ الِاعْتِمَادُ عَلَىٰ اللهِ فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ، مَعَ الثِّقَةِ بِهِ فِي حُصُولِ ذَلِكَ، وَهَذَا الْتِزَامٌ مِنَ الْعَبْدِ بِعُبُودِيَّةِ رَبِّهِ، وَطَلَبٌ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يُعِينَهُ عَلَىٰ الْقِيَامِ بِذَلِكَ، وَبِذَلِكَ يَتَوَسَّلُ إِلَىٰ السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ وَالنَّجَاةِ مِنْ جَمِيعِ الشُّرُورِ، فَلَا سَبِيلَ لِذَلِكَ إِلَّا بِالْقِيَامِ بِعِبَادَةِ اللهِ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ، وَعُلِمَ بِذَلِكَ شِدَّةُ افْتِقَارِ الْعَبْدِ لِعِبَادَةِ اللهِ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ»(١).(*).

«﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يَدُورُ الْقُرْآنُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَىٰ آخِرِهِ عَلَىٰ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ؛ بَلْ يَدُورُ عَلَيْهِمَا الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ، وَتَضَمَّنَتَا أَجَلَّ الْغَايَاتِ وَأَكْمَلَ الْوَسَائِلِ»(٣).(*/٢).

---

(١) «**تيسر اللطيف المنان**»: (ص١١).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «شَرْحُ تَيْسِيرِ اللَّطِيفِ الْمَنَّانِ فِي خُلَاصَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» (الْمُحَاضَرَةُ الْأُولَىٰ)، الْأَحَدُ ١٦ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٤هـ| ٢٢-٩-٢٠١٣م.

(٣) «**الكلام علىٰ مسألة السماع**»: (ص١٠٠).

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ بِاخْتِصَارٍ وَتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ مِنْ خُطْبَة: «التَّعَبُّدُ بِالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ فِي الصَّلَاةِ» - ٢٤ مِنْ رَجَبٍ ١٤٣٥هـ| ٢٣-٥-٢٠١٤م.

«عَلَّمَنَا اللهُ جَلَّوَعَلَا كَيْفَ نَتَوَسَّلُ إِلَيْهِ فِي قَبُولِ دُعَائِنَا، فَقَالَ: احْمَدُوا اللهَ، وَأَثْنُوا عَلَيْهِ، وَمَجِّدُوهُ، وَالْتَزِمُوا لَهُ بِأَنْ تَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ، وَتَسْتَعِينُوهُ، وَلَا تَسْتَعِينُوا بِغَيْرِهِ.

فَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّهَا تُعَلِّمُنَا آدَابَ الدُّعَاءِ؛ حَيْثُ يُقَدِّمُ السَّائِلُ بَيْنَ يَدَيْ دُعَائِهِ حَمْدَ اللهِ، وَالثَّنَاءَ عَلَيْهِ، وَتَمْجِيدَهُ، وَزَادَتِ السُّنَّةُ الصَّلَاةَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَالسَّلَامَ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَسْأَلُ حَاجَتَهُ؛ فَإِنَّهُ يُسْتَجَابُ لَهُ.

مِنْ فَوَائِدِ الْآيَةِ الْمُشَرَّفَةِ: أَلَّا يَعْبُدَ الْإِنْسَانُ غَيْرَ رَبِّهِ، وَأَلَّا يَسْتَعِينَ إِلَّا بِرَبِّهِ جَلَّوَعَلَا وَمَعْبُودِهِ وَإِلَهِهِ الْحَقِّ.(*).

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦].

﴿ ٱهۡدِنَا﴾: أَرْشِدْنَا وَأَدِمْ هِدَايَتَنَا.

وَطَلَبُ الْهِدَايَةِ مِنَ الْمُهْتَدِي؛ مَعْنَاهُ: طَلَبُ الزِّيَادَةِ مِنَ الْهِدَايَةِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يُهْدَىٰ إِلَىٰ الطَّرِيقِ ثُمَّ يُقْطَعُ بِهِ، فَلَا يَسْتَمِرُّ فِي هِدَايَتِهِ، فَيَقُولُ الْمُهْتَدِي: اهْدِنَا، فَهَذَا طَلَبُ هِدَايَةٍ مِنْ مُهْتَدٍ، وَمَعْنَاهُ: طَلَبُ الزِّيَادَةِ مِنَ الْهِدَايَةِ، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى ﴾ [محمد: ١٧].

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ﴾: الطَّرِيقَ الْمُوصِلَ إِلَىٰ رِضَاكَ، وَإِلَىٰ جَنَّتِكَ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ لَكَ ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾: الَّذِي لَا مَيْلَ فِيهِ عَنِ الْحَقِّ، وَلَا زَيْغَ عَنِ الْهُدَىٰ، وَهُوَ الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [الفاتحة: ٥].

بِتَعْلِيمٍ مِنَ اللهِ -تَعَالَىٰ- يَقُولُ الْعَبْدُ فِي جُمْلَةِ إِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ، سَائِلًا رَبَّهُ بَعْدَ أَنْ تَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِحَمْدِهِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَتَمْجِيدِهِ، وَمُعَاهَدَتِهِ أَلَّا يَعْبُدَ هُوَ وَإِخْوَانُهُ الْمُؤْمِنُونَ إِلَّا هُوَ جَلَّوَعَلَا، وَأَلَّا يَسْتَعِينُوا إِلَّا بِهِ -تَعَالَىٰ-؛ يَسْأَلُونَهُ أَنْ يُدِيمَ هِدَايَتَهُمْ لِلْإِسْلَامِ؛ حَتَّىٰ لَا يَنْقَطِعُوا عَنْهُ.

فَفِي الْآيَةِ: التَّرْغِيبُ فِي دُعَاءِ اللهِ، وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**»(١). (*).

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾ [الفاتحة: ٧]؛ النِّعْمَةُ: اسْمُ جِنْسٍ تَحْتَهُ:

* نِعْمَةُ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَبِمَا أَوْجَبَ الْإِيمَانَ بِهِ.

* وَنِعْمَةُ مَعْرِفَةِ اللهِ -تَعَالَىٰ- بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

---

(١) أخرجه أبو داود في «**السنن**»: كتاب الصلاة: بَابُ الدُّعَاءِ، (١٤٧٩)، والترمذي في «**الجامع**»: أبواب الدعوات: بَاب مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الدُّعَاءِ، (٣٣٧٢)، وابن ماجه في «**السنن**»: كتاب الدعاء: بَابُ فَضْلِ الدُّعَاءِ، (٣٨٢٨)، من حديث: النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه، قَالَ:

سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدعُونِيٓ أَستَجِب لَكُم إِنَّ ٱلَّذِينَ يَستَكبِرُونَ عَن عِبَادَتِي سَيَدخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وكذا صححه الألباني في «**صحيح أبي داود**»: (٥/ ٢١٩، رقم ١٣٢٩).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» -[الفاتحة: ٥].

* وَنِعْمَةُ مَعْرِفَةِ مَحَابِّهِ وَمَكَارِهِهِ.

* وَنِعْمَةُ التَّوْفِيقِ لِفِعْلِ الْمَحَابِّ، وَتَرْكِ الْمَكَارِهِ.

(الصِّرَاطُ): كَمَا مَرَّ؛ الطَّرِيقُ الْمُوصِلُ إِلَىٰ رِضْوَانِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وَإِلَىٰ جَنَّتِهِ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ للهِ جَلَّوَعَلَا.

﴿ٱلَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: هُمُ النَّبِيُّونَ وَالصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحُونَ، وَكُلُّ مَنْ أَنْعَمَ اللهُ -تَعَالَىٰ- عَلَيْهِمْ بِالْإِيمَانِ بِهِ، وَبِمَعْرِفَتِهِ -تَعَالَىٰ-، وَمَعْرِفَةِ مَحَابِّهِ وَمَسَاخِطِهِ، وَبِالتَّوْفِيقِ لِفِعْلِ الْمَحَابِّ، وَتَرْكِ الْمَكَارِهِ.

لَمَّا سَأَلَ الْمُؤْمِنُ لِنَفْسِهِ وَلِإِخْوَانِهِ الْهِدَايَةَ إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَكَانَ الصِّرَاطُ مُجْمَلًا؛ بَيَّنَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ وَهُوَ الْمَنْهَجُ الْقَوِيمُ الْمُفْضِي بِالْعَبْدِ إِلَىٰ رِضْوَانِ اللهِ -تَعَالَىٰ- وَالْجَنَّةِ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ الْقَائِمُ عَلَىٰ الْإِيمَانِ، وَالْعِلْمِ، وَالْعَمَلِ، مَعَ اجْتِنَابِ الشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي.

فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ: الِاعْتِرَافُ بِنِعْمَةِ اللهِ -تَعَالَىٰ-، وَطَلَبُ حُسْنِ الْقُدْوَةِ.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]: الْجُمْهُورُ عَلَىٰ أَنَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ: الْيَهُودُ، وَأَنَّ الضَّالِّينَ: النَّصَارَىٰ، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ مُفَسَّرًا عَنْ رَسُولِ اللهِ.

﴿غَيْرِ﴾: لَفْظٌ يُسْتَثْنَىٰ بِهِ كَـ (إِلَّا) ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: مَنْ غَضِبَ اللهُ -تَعَالَىٰ- عَلَيْهِمْ؛ لِكُفْرِهِمْ، وَإِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ؛ كَالْيَهُودِ.

﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾: مَنْ أَخْطَئُوا طَرِيقَ الْحَقِّ، فَعَبَدُوا اللهَ بِمَا لَمْ يَشْرَعْهُ؛ كَالنَّصَارَىٰ.

وَالضَّلَالُ: الذَّهَابُ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ وَسَنَنِ الْقَصْدِ.

فَلَمَّا سَأَلَ الْمُؤْمِنُ رَبَّهُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَبَيَّنَهُ بِأَنَّهُ صِرَاطُ مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِنِعْمَةِ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَمُبَالَغَةً فِي طَلَبِ الْهِدَايَةِ إِلَىٰ الْحَقِّ، وَخَوْفًا مِنَ الْغِوَايَةِ؛ اسْتَثْنَىٰ كُلًّا مِنْ طَرِيقِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ»[1].(*).

«﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾؛ أَيْ: دُلَّنَا وَأَرْشِدْنَا، وَوَفِّقْنَا لِلْعِلْمِ بِالْحَقِّ، وَالْعَمَلِ بِهِ، الَّذِي هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، الْمُعْتَدِلُ الْمُوصِلُ إِلَىٰ اللهِ، وَإِلَىٰ جَنَّتِهِ وَكَرَامَتِهِ، وَهَذَا يَشْمَلُ الْهِدَايَةَ إِلَىٰ الصِّرَاطِ، وَهِيَ التَّوْفِيقُ لِلُزُومِ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَتَرْكِ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَدْيَانِ الْبَاطِلَةِ، وَيَشْمَلُ الْهِدَايَةَ فِي الصِّرَاطِ وَقْتَ سُلُوكِهِ عِلْمًا وَعَمَلًا؛ فَهَذَا الدُّعَاءُ مِنْ أَجْمَعِ الْأَدْعِيَةِ وَأَنْفَعِهَا لِلْعَبْدِ.

وَلِهَذَا أَوْجَبَهُ اللهُ وَيَسَّرَهُ، وَهَذَا الصِّرَاطُ هُوَ طَرِيقُ وَ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] بِالنِّعْمَةِ التَّامَّةِ الْمُتَّصِلَةِ بِالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ، وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحُونَ، ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]: وَهُمُ الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَتَرَكُوهُ؛ كَالْيَهُودِ وَنَحْوِهِمْ، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]: الَّذِينَ ضَلُّوا عَنِ الْحَقِّ؛ كَالنَّصَارَىٰ وَنَحْوِهِمْ.

---

(١) «**أيسر التفاسير**»: (١/ ١٤-١٧).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [الفاتحة: ٧].

وَمَنْ رُزِقَ عِلْمًا وَلَمْ يُرْزَقْ عَمَلًا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ فَقَدْ أَشْبَهَ الْيَهُودَ، فَمَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا؛ فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عُبَّادِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارَىٰ»(١). (*).

«**فَفِي الْآيَةِ**: التَّرْغِيبُ فِي سُلُوكِ سَبِيلِ الصَّالِحِينَ، وَالتَّرْهِيبُ مِنْ سُلُوكِ سَبِيلِ الْغَاوِينَ»(٣). (*/٢).

«لَمَّا كَانَتْ حَاجَتُهُ إِلَىٰ سُؤَالِ الْهِدَايَةِ أَعْظَمَ الْحَاجَاتِ، وَفَاقَتُهُ إِلَيْهَا أَشَدَّ الْفَاقَاتِ؛ فَرَضَ عَلَيْهِ الرَّبُّ الرَّحِيمُ هَذَا السُّؤَالَ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فِي أَفْضَلِ أَحْوَالِهِ -وَهِيَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ- مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةً؛ لِشِدَّةِ ضَرُورَتِهِ وَفَاقَتِهِ إِلَىٰ هَذَا الْمَطْلُوبِ، وَهُوَ الْهِدَايَةُ.

ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ سَبِيلَ أَهْلِ هَذِهِ الْهِدَايَةِ مُغَايِرٌ لِسَبِيلِ أَهْلِ الْغَضَبِ وَأَهْلِ الضَّلَالِ، فَانْقَسَمَ الْخَلْقُ -إِذَنْ- ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ هَذِهِ الْهِدَايَةِ:

١- مُنْعَمٌ عَلَيْهِ بِحُصُولِهَا، وَاسْتِمْرَارُ حَظِّهِ مِنَ النِّعَمِ بِحَسَبِ حَظِّهِ مِنْ تَفَاصِيلِهَا وَأَقْسَامِهَا.

---

(١) «**تيسير اللطيف المنان**»: (ص١١-١٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «شَرْحُ تَيْسِيرِ اللَّطِيفِ الْمَنَّانِ فِي خُلَاصَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» (الْمُحَاضَرَةُ الْأُولَىٰ)، الْأَحَدُ ١٦ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٤هـ| ٢٢-٩-٢٠١٣م.

(٣) «**أيسر التفاسير**»: (١/ ١٧).

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [الفاتحة: ٧].

٢- وَضَالٌّ لَمْ يُعْطَ هَذِهِ الْهِدَايَةَ، وَلَمْ يُوَفَّقْ إِلَيْهَا.

٣- وَمَغْضُوبٌ عَلَيْهِ عَرَفَهَا، وَلَمْ يُوَفَّقْ لِلْعَمَلِ بِمُوجِبِهَا.

فَالْأَوَّلُ: الْمُنْعَمُ عَلَيْهِ، قَامَ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ؛ عِلْمًا وَعَمَلًا، وَالضَّالُّ مُنْسَلِخٌ عَنْهُ؛ عِلْمًا وَعَمَلًا، وَالْمَغْضُوبُ عَلَيْهِ عَارِفٌ بِهِ عِلْمًا، مُنْسَلِخٌ مِنْهُ عَمَلًا، وَاللهُ هُوَ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ»(١).(*).

(آمِين): اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ، وَكَلِمَةُ (آمِين) لَيْسَتْ مِنَ الْفَاتِحَةِ بِالِاتِّفَاقِ.(*/٢).

❀❀❀

(١) «الكلام علىٰ مسألة السماع»: (ص١٠٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ بِاخْتِصَارٍ وَتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ مِنْ خُطْبَة: «التَّعَبُّدُ بِالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ فِي الصَّلَاةِ» - ٢٤ مِنْ رَجَبٍ ١٤٣٥هـ| ٢٣-٥-٢٠١٤م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ].

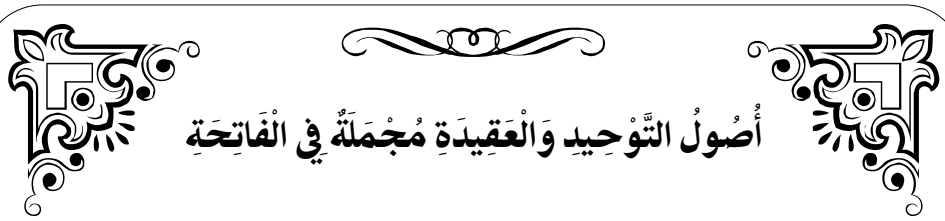

أُصُولُ التَّوْحِيدِ وَالْعَقِيدَةِ مُجْمَلَةٌ فِي الْفَاتِحَةِ

«هَذِهِ السُّورَةُ عَلَىٰ إِيجَازِهَا قَدْ جَمَعَتْ عُلُومًا جَمَّةً، تَضَمَّنَتْ أَنْوَاعَ التَّوْحِيدِ الثَّلَاثَةَ:

* **تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ:** ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

* **وَتَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ مِنْ قَوْلِهِ:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فَهُوَ الْمَأْلُوهُ بِعِبَادَتِهِ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ.

* **وَتَوْحِيدُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ** بِأَنْ يُثْبِتَ للهِ صِفَاتِ الْكَمَالِ كُلَّهَا الَّتِي أَثْبَتَهَا لِنَفْسِهِ، وَأَثْبَتَهَا لَهُ رَسُولُهُ ﷺ، وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ إِثْبَاتُ الْحَمْدِ للهِ؛ فَإِنَّ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَىٰ وَالصِّفَاتِ الْعُلْيَا وَأَحْكَامَهَا كُلُّهَا مَحَامِدُ وَمَدَائِحُ للهِ -تَعَالَىٰ-.

* **وَتَضَمَّنَتْ إِثْبَاتَ الرِّسَالَةِ فِي قَوْلِهِ:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]؛ لِأَنَّهُ الطَّرِيقُ الَّذِي عَلَيْهِ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ، وَذَلِكَ فَرْعٌ عَنِ الْإِيمَانِ بِنُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ.

* **وَتَضَمَّنَتْ إِثْبَاتَ الْجَزَاءِ،** وَأَنَّهُ بِالْعَدْلِ، وَذَلِكَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

* **وَتَضَمَّنَتْ إِثْبَاتَ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي الْقَدَرِ**، وَأَنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، وَأَنَّ الْعَبْدَ فَاعِلٌ حَقِيقَةً، لَيْسَ مَجْبُورًا عَلَىٰ أَفْعَالِهِ، وَهَذَا يُفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فَلَوْ لَا أَنَّ مَشِيئَةَ الْعَبْدِ مُضْطَرٌّ فِيهَا إِلَىٰ إِعَانَةِ رَبِّهِ وَتَوْفِيقِهِ؛ لَمْ يَسْأَلِ الِاسْتِعَانَةَ.

* **وَتَضَمَّنَتْ أَصْلَ الْخَيْرِ وَمَادَّتَهُ**، وَهُوَ الْإِخْلَاصُ الْكَامِلُ للهِ فِي قَوْلِ الْعَبْدِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ السُّورَةُ بِهَذِهِ الْعَظَمَةِ وَالْجَلَالَةِ؛ أَوْجَبَهَا الشَّارِعُ عَلَىٰ الْمُكَلَّفِينَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ مِنْ صَلَاتِهِمْ؛ فَرْضًا وَنَفْلًا، وَفِيهَا تَعْلِيمُ اللهِ لِعِبَادِهِ كَيْفَ يَحْمَدُونَهُ وَيُثْنُونَ عَلَيْهِ، وَيُمَجِّدُونَهُ بِمَحَامِدِهِ، ثُمَّ يَسْأَلُونَ رَبَّهُمْ جَمِيعَ مَطَالِبِهِمْ.

فَفِيهَا دَلِيلٌ عَلَىٰ افْتِقَارِهِمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ فِي الْأَمْرَيْنِ، مُفْتَقِرِينَ إِلَيْهِ فِي أَنْ يَمْلَأَ قُلُوبَهُمْ مِنْ مَحَبَّتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَمُفْتَقِرِينَ إِلَيْهِ فِي أَنْ يَقُومَ بِمَصَالِحِهِمْ، وَيُوَفِّقَهُمْ لِخِدْمَتِهِ، وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»(١).(*).

---

(١) «**تيسير اللطيف المنان**»: (ص١٢-١٣).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «شَرْحُ تَيْسِيرِ اللَّطِيفِ الْمَنَّانِ فِي خُلَاصَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» (الْمُحَاضَرَةُ الْأُولَىٰ)، الْأَحَدُ ١٦ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٤هـ| ٢٢-٩-٢٠١٣م.

الدَّرْسُ الثَّالِثُ:

دُرُوسُ التَّوْحِيدِ فِي آيَةِ الْكُرْسِيِّ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

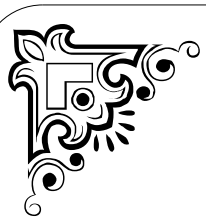

أَعْظَمُ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ

فَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»(١) مِنْ رِوَايَةِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلَنِي النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**يَا أَبَا المُنْذِرِ! أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِن كِتابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**».

قَالَ: قُلتُ: «﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة:٢٥٥]».

قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «**واللهِ لِيَهْنِكَ العِلْمُ أبا المُنْذِرِ**».

فَآيَةُ الْكُرْسِيِّ هِيَ أَعْظَمُ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَهِيَ فِي بَيَانِ تَوْحِيدِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَذِكْرِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَمَا تَفَرَّدَ بِهِ مِنَ الْجَلَالِ وَالْعَظَمَةِ، وَذَلِكَ يَسْتَتْبِعُ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فَأَثْبَتَتْ هَذِهِ الْآيَةُ تَوْحِيدَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَهِيَ أَعْظَمُ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.(*).

---

(١) «**صَحِيحُ مُسْلِمٍ**»: كتاب صلاة المسافرين: باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، (٨١٠).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ كِتَاب: «لِمَاذَا هِيَ أَعْظَمُ؟» (ص: ٢٥).

«**رَوَىٰ الْبُخَارِيُّ**(١) **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه **فِي قِصَّةِ اسْتِحْفَاظِ النَّبِيِّ** ﷺ **إِيَّاهُ عَلَىٰ الصَّدَقَةِ، وَأَخْذِ الشَّيْطَانِ مِنْهَا، وَقَوْلِهِ لِأَبِي هُرَيْرَةَ**: «إِذَا أَوَيْتَ إِلَىٰ فِرَاشِكَ؛ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ﴾ حَتَّىٰ تَخْتِمَ الْآيَةَ؛ فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّىٰ تُصْبِحَ، فَأَخْبَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ النَّبِيَّ ﷺ بِذَلِكَ، فَقَالَ: «**إِنَّهُ صَدَقَكَ، وَهُوَ كَذُوبٌ**»»(٢). (*).

❀❀❀

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كتاب الوكالة: باب إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئا فأجازه الموكل فهو جائز، (٢٣١١).

(٢) «**شرح العقيدة الواسطية**» ضمن مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين: (٨/ ١٤٦).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «شَرْحُ الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ» (الْمُحَاضَرَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ)، الْأَرْبِعَاءُ ٣٠ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٢٨هـ| ١٢-٩-٢٠٠٧م.

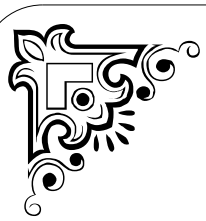

مَعْنَى وَتَفْسِيرُ آيَةِ الْكُرْسِيِّ

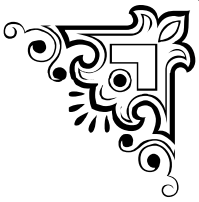

قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

«اللهُ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ الْإِلَهِيَّةَ إِلَّا هُوَ، ذُو الْحَيَاةِ الْكَامِلَةِ، الْبَاقِي عَلَىٰ الْأَبَدِ، الدَّائِمُ بِلَا زَوَالٍ، الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ الَّذِي لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ شَيْءٍ، وَالْمُقِيمُ لِغَيْرِهِ؛ إِذْ هُوَ الْقَائِمُ بِتَدْبِيرِ خَلْقِهِ فِي إِيجَادِهِمْ وَأَرْزَاقِهِمْ، وَجَمِيعِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ.

لَا يَأْخُذُهُ -سُبْحَانَهُ- نُعَاسٌ يَتَقَدَّمُ النَّوْمَ؛ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَأْخُذَهُ نَوْمٌ مُزِيلٌ لِلْقُوَّةِ وَالْعِلْمِ؛ لِأَنَّهُ -سُبْحَانَهُ- مُنَزَّهٌ عَنِ النَّقَائِصِ وَالْآفَاتِ وَالتَّغَيُّرِ.

فَهَذِهِ الصِّفَاتُ الْمَنْفِيَّةُ هِيَ مَنْفِيَّةٌ عَنِ اللهِ جَلَّوَعَلَا؛ لِأَنَّ اللهَ نَفَاهَا عَنْ نَفْسِهِ؛ لِثُبُوتِ كَمَالِ ضِدِّهَا لَهُ جَلَّوَعَلَا، فَلَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ؛ لِكَمَالِ حَيَاتِهِ، وَكَمَالِ قَيُّومِيَّتِهِ، وَهُوَ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِغَيْرِ شَرِيكٍ وَلَا مُنَازِعٍ.

وَمِنْ كَمَالِ سُلْطَانِهِ وَشُمُولِ إِرَادَتِهِ: أَنَّهُ -سُبْحَانَهُ- لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِأَمْرِهِ وَإِرَادَتِهِ؛ كَشَفَاعَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَالْمَلَائِكَةِ، وَالْمُؤْمِنِينَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ.

وَهُوَ -سُبْحَانَهُ- يَعْلَمُ كُلَّ مَا قَدَّمَ عِبَادُهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ اعْتِقَادَاتٍ وَنِيَّاتٍ، وَأَعْمَالٍ ظَاهِرَةٍ وَبَاطِنَةٍ، وَيَعْلَمُ -سُبْحَانَهُ- كُلَّ مَا سَيَأْتِي فِي مُسْتَقْبَلِ أَمْرِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ، فَهُوَ الَّذِي يَكُونُ خَلْفَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَجْهَلُونَهُ، لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ جَمِيعِ خَلْقِهِ، وَلَا أَحَدَ يُحِيطُ بِمَعْلُومَاتِ اللهِ -تَعَالَىٰ- عِلْمَ إِحَاطَةٍ وَاسْتِغْرَاقٍ؛ إِلَّا مَا أَطْلَعَ اللهُ عَلَيْهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ؛ لِيَكُونَ دَلِيلًا عَلَىٰ نُبُوَّتِهِمْ.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ وَالْكُرْسِيُّ مَخْلُوقٌ عَظِيمٌ بَيْنَ يَدَيِ الْعَرْشِ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، نُفَوِّضُ عِلْمَ حَقِيقَتِهِ إِلَيْهِ -تَعَالَىٰ-.

وَلَا يُثْقِلُهُ -سُبْحَانَهُ- وَلَا يَشُقُّ عَلَيْهِ حِفْظُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَلَاءَتُهُمَا؛ لِأَنَّ ذَاتَهُ مُنَزَّهَةٌ عَنِ التَّعَبِ، فَكُلُّ شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ فِي حِفْظِ اللهِ وَحِيَاطَتِهِ، فَالسَّمَاءُ بِأَفْلَاكِهَا وَطَبَقَاتِهَا وَكَوَاكِبِهَا، وَالْأَرْضُ وَمَا عَلَيْهَا وَمَنْ عَلَيْهَا وَمَا فِيهَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا؛ كُلُّ ذَلِكَ يَسِيرٌ حِفْظُهُ، وَهُوَ فِي الْوَقْتِ عَيْنِهِ يَسِيرُ عَلَىٰ نِظَامٍ مُحْكَمٍ مَحْفُوظٍ خَاضِعٍ لِقَوَانِينِهِ الَّتِي سَنَّهَا -تَعَالَىٰ- فِي خَلْقِهِ.

وَهُوَ الْمُتَعَالِي عَنِ الْأَشْبَاهِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَمْثَالِ، الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ، ذُو الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ، الَّذِي لَا شَيْءَ أَعْظَمُ مِنْهُ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ -يَعْنِي: آيَةَ الْكُرْسِيِّ- أَعْظَمُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ»(١).(*).

---

(١) «المعين علىٰ تدبر الكتاب المبين»: (ص٤٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» -[البقرة: ٢٥٥].

إِنَّ آيَةَ الْكُرْسِيِّ هِيَ أَعْظَمُ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَتَعْلَمُ أَيَّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**».

قَالَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾: هُوَ الْعَلَمُ الْمُفْرَدُ الَّذِي لَمْ يَتَسَمَّ بِهِ أَحَدٌ، هُوَ للهِ خَالِصًا ﷻ، وَهُوَ عَلَمٌ عَلَىٰ الذَّاتِ الْمُقَدَّسَةِ، لَمْ يَتَسَمَّ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَلَا مِنَ الْآخِرِينَ، وَهُوَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ خَالِصًا.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: وَهَذَا خَبَرٌ لِهَذَا الْمُبْتَدَأِ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: إِثْبَاتٌ لِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَحْدَهُ؛ لِأَنَّ الْإِلَهَ بِمَعْنَىٰ الْمَأْلُوهِ، وَالْمَأْلُوهُ: الْمَعْبُودُ، فَلَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ، وَأَمَّا مَا يُعْبَدُ بِغَيْرِ حَقٍّ؛ فَحَدِّثْ عَنْ كَثْرَتِهِ وَلَا حَرَجَ؛ فَالنَّاسُ يَتَّخِذُونَ مَعْبُودَاتٍ كَثِيرَاتٍ مِنْ دُونِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَأَمَّا الْإِلَهُ الْحَقُّ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ؛ فَهُوَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ﴿ٱلْحَيُّ﴾: وَهَذَا خَبَرٌ ثَانٍ ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾: خَبَرٌ ثَالِثٌ، وَأَثْبَتَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِنَفْسِهِ صِفَةَ الْحَيَاةِ، وَصِفَةُ الْحَيَاةِ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِنَّمَا هِيَ عَلَىٰ قَدْرِ ذَاتِهِ، وَذَاتُهُ لَيْسَ كَمِثْلِهَا ذَاتٌ، فَحَيَاتُهُ لَيْسَ كَمِثْلِهَا حَيَاةٌ، حَيَاتُهُ جَلَّ وَعَلَا لَيْسَتْ مَسْبُوقَةً بِعَدَمٍ وَلَا مَلْحُوقَةً بِزَوَالٍ كَحَيَاةِ الْأَحْيَاءِ الْمَخْلُوقِينَ الَّذِينَ خَلَقَهُمُ اللهُ وَأَعْطَاهُمُ الْحَيَاةَ، فَحَيَاتُهُمْ مَسْبُوقَةٌ بِالْعَدَمِ مَلْحُوقَةٌ بِالزَّوَالِ، وَأَمَّا حَيَاةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فَكَامِلَةٌ.

وَحَيَاةُ الْأَحْيَاءِ فِيهَا مِنَ الْآفَاتِ مَا فِيهَا، وَحَيَاةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كَامِلَةٌ؛ فَهِيَ مُبَرَّأَةٌ مِنْ تِلْكَ الْآفَاتِ وَالنَّقَائِصِ كُلِّهَا، الْحَيُّ مِنَ الْأَحْيَاءِ تُدْرِكُهُ مَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الَّتِي يَحْيَاهَا مِنْ صُنُوفِ الْآفَاتِ الَّتِي تَعْتَرِيهِ؛ مِنَ الْمَرَضِ، وَمِنَ الْعَجْزِ، وَمَا أَشْبَهَ مِنْ تِلْكَ الْآفَاتِ، وَأَمَّا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فَهُوَ الْحَيُّ.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾: فَيْعُولٌ قَائِمٌ بِذَاتِهِ، وَقَائِمٌ بِغَيْرِهِ ﷻ، قَيُّومٌ عَلَىٰ وَزْنِ فَيْعُولٍ، وَهِيَ مِنَ الْقِيَامِ، وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، قَائِمٌ بِغَيْرِهِ، فَهُوَ ﷻ غَنِيٌّ عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ، وَهُمْ جَمِيعًا فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ جَلَّ وَعَلَا؛ إِذْ وُجُودُهُمْ مِنْهُ ﷻ، الْحَيُّ الْقَيُّومُ الْعَزِيزُ الَّذِي يَحْتَاجُهُ كُلُّ مَوْجُودٍ، وَلَا يَحْتَاجُ أَحَدًا.

الْحَيُّ الْقَيُّومُ، لَا تَأْخُذُهُ ﷻ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ﴾: وَعَبَّرَ بِالْأَخْذِ هَاهُنَا؛ لِأَنَّ النَّوْمَ قَدْ يَكُونُ أَخْذًا بِاخْتِيَارٍ، وَقَدْ يَكُونُ أَخْذًا بِاضْطِرَارٍ، فَإِذَا كَانَ بِاخْتِيَارٍ؛ فَلَا يَكُونُ أَخْذًا فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، فَعَبَّرَ بِهَذَا لِنَفْيِ هَذَا وَهَذَا.

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾: وَالسِّنَةُ مُقَدِّمَاتُ النَّوْمِ، مِنَ الْوَسَنِ وَمَا أَشْبَهَ، فَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مُبَرَّءٌ عَنْ هَذَا النَّقْصِ كُلِّهِ، مَعَ أَنَّ هَذَا الْوَصْفَ بِالنِّسْبَةِ لِلْإِنْسَانِ -مَثَلًا- يَكُونُ كَمَالًا كَمَا يَكُونُ نَقْصًا، فَهُوَ نَقْصٌ فِي الْإِنْسَانِ -أَيِ: النَّوْمُ-؛ لِأَنَّهُ لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ، فَالْإِنْسَانُ لَا يَسْتَطِيعُ أَلَّا يَنَامَ، لَا بُدَّ أَنْ يَنَامَ، فَهَذَا إِذَا كَانَ الْوَصْفُ عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ؛ كَانَ نَقْصًا، وَلَكِنَّ النَّوْمَ يَكُونُ كَمَالًا -أَيْضًا- إِذَا كَانَ مِنْ صِحَّةٍ، لَا مِنِ اعْتِلَالٍ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ رُبَّمَا لَا يَنَامُ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ مَرِيضًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنَامَ،

فَيَكُونُ النَّوْمُ كَمَالًا فِي حَقِّ الْإِنْسَانِ كَمَا يَكُونُ نَقْصًا فِيهِ عَلَىٰ مَا هُوَ مَعْهُودٌ، وَأَمَّا اللهُ جَلَّوَعَلَا؛ فَلَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: كُلُّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ هُوَ مِلْكٌ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فَمَهْمَا اتَّخَذَ النَّاسُ مِنْ مَعْبُودٍ سَمَاوِيٍّ؛ كَالْمَلَائِكَةِ فِي السَّمَاوَاتِ، أَوْ مَعْبُودٍ أَرْضِيٍّ؛ مِنْ وَلِيٍّ، أَوْ نَبِيٍّ، مِنْ حَجَرٍ، أَوْ شَجَرٍ، أَوْ بَقَرٍ.. مَهْمَا اتَّخَذَ النَّاسُ مِنْ مَعْبُودٍ؛ فَكُلُّ هَذَا مَمْلُوكٌ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فَكَيْفَ يَكُونُ مَا هُوَ مَمْلُوكٌ للهِ جَلَّوَعَلَا؛ كَيْفَ يَكُونُ مُسْتَحِقًّا لِلْعِبَادَةِ مَعَ اللهِ، أَوْ مِنْ دُونِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؟!!

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾: وَالشَّفَاعَةُ: طَلَبُ الْخَيْرِ لِلْغَيْرِ، وَلَا يَشْفَعُ أَحَدٌ -وَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ- عِنْدَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، كَمَا فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ: «أَنَّ النَّبِيَّ يَسْجُدُ عِنْدَ الْعَرْشِ، يَحْمَدُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِمَحَامِدَ، قَالَ: لَا أَعْلَمُهَا الْآنَ، يَفْتَحُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَيَّ بِهَا، ثُمَّ يُنَادَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَيُؤْذَنُ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ: يَا مُحَمَّدُ! ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَيَأْذَنُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِصَفِيِّهِ وَنَجِيِّهِ وَخَلِيلِهِ وَنَبِيِّهِ وَكَلِيمِهِ مُحَمَّدٍ بِالشَّفَاعَةِ عِنْدَهُ»، لَا يَشْفَعُ ابْتِدَاءً، لَا هُوَ وَلَا غَيْرُهُ -صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ-، فَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مُتَفَرِّدٌ بِالْأَمْرِ كُلِّهِ، لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾: ﴿مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾؛ بِمَعْنَىٰ: مَعْلُومِهِ، أَوْ مِنْ عِلْمِهِ الَّذِي يُعَلِّمُهُمْ إِيَّاهُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: وَالْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ، وَأَمَّا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ؛ فَهِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْكُرْسِيِّ كَالْحَلْقَةِ فِي الْفَلَاةِ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَىٰ الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْكُرْسِيِّ عَلَىٰ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الْخَلْقَ الْعَظِيمَ الَّذِي هُوَ عَرْشُ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ!! الَّذِي اسْتَوَىٰ عَلَيْهِ رَبُّنَا جَلَّوَعَلَا ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]؛ أَثْبَتَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ لِنَفْسِهِ الِاسْتِوَاءَ عَلَىٰ عَرْشِهِ، وَعَرْشُهُ هُوَ أَعْظَمُ مَخْلُوقٍ مِنْ حَيْثُ الْعِظَمُ وَالْكِبَرُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرَضُونَ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ فِي فَلَاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَىٰ الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْكُرْسِيِّ عَلَىٰ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**».

فَيَا للهِ مَا أَعْظَمَ عَرْشَ اللهِ!!

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]: أَثْبَتَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ اسْتِوَاءَهُ عَلَىٰ عَرْشِهِ ﷻ، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾؛ أَيْ: لَا يُثْقِلُهُ ﷻ، وَلَا يَنُوءُهُ ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾: عَلِيٌّ فِي ذَاتِهِ، عَلِيٌّ فِي صِفَاتِهِ، عَلِيٌّ فِي قَهْرِهِ، لَهُ عُلُوُّ الذَّاتِ، وَعُلُوُّ الصِّفَاتِ، وَعُلُوُّ الْقَهْرِ، وَالْقُلُوبُ مُتَعَلِّقَةٌ بِصِفَةِ الْعُلُوِّ للهِ؛ فَإِنَّهُ مَا سَجَدَ سَاجِدٌ يَدْعُو رَبَّهُ إِلَّا قَالَ وَهُوَ سَاجِدٌ، وَهُوَ مُمَرِّغٌ أَنْفَهُ فِي التُّرَابِ سَاجِدًا للهِ جَلَّوَعَلَا؛ إِلَّا قَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَىٰ»؛ فَتَوَجَّهَ قَلْبُهُ إِلَىٰ جِهَةِ الْعُلُوِّ.

النَّاسُ عِنْدَمَا يَدْعُونَ؛ لَا تَتَوَجَّهُ قُلُوبُهُمْ إِلَىٰ جِهَةِ السُّفْلِ، وَإِنَّمَا تَتَوَجَّهُ قُلُوبُهُمْ إِلَىٰ جِهَةِ الْعُلُوِّ، جَعَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْإِقْرَارَ وَالْإِثْبَاتَ لِصِفَةِ الْعُلُوِّ؛

عُلُوِّ الذَّاتِ للهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ الْمَجِيدِ الْمُتَعَالِ.. جَعَلَ الْإِقْرَارَ وَالْإِثْبَاتَ لِهَذِهِ الصِّفَةِ الْعَظِيمَةِ مِنْ صِفَاتِ رَبِّنَا جَلَّوَعَلَا، جَعَلَهَا غَرِيزَةً مَغْرُوزَةً فِي النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ؛ فَإِنَّهُ مَا قَالَ قَائِلٌ يَوْمًا: يَا رَبِّ! إِلَّا وَجَدَ ضَرُورَةً فِي نَفْسِهِ تَتَّجِهُ إِلَىٰ جِهَةِ الْعُلُوِّ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ للهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ صِفَةَ الْعُلُوِّ؛ عُلُوَّ الذَّاتِ، وَأَنَّهُ جَلَّوَعَلَا مُسْتَوٍ عَلَىٰ عَرْشِهِ بِذَاتِهِ، وَهُوَ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، لَا شَيْءَ مِنْ خَلْقِهِ بِدَاخِلٍ فِيهِ، وَلَا هُوَ -سُبْحَانَهُ- بِدَاخِلٍ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾: لَهُ الْعَظَمَةُ كُلُّهَا، وَلَهُ الْمَجْدُ -سُبْحَانَهُ-، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.(*).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مقطع بعنوان: «تفسير آية الكرسي».

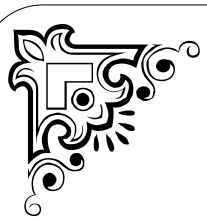

مِنْ دُرُوسِ التَّوْحِيدِ فِي آيَةِ الْكُرْسِيِّ

«أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أَعْظَمُ آيَاتِ الْقُرْآنِ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ، وَأَنَّهَا تَحْفَظُ قَارِئَهَا مِنَ الشَّيَاطِينِ وَالشُّرُورِ كُلِّهَا؛ لِمَا احْتَوَتْ عَلَيْهِ مِنْ مَعَانِي التَّوْحِيدِ وَالْعَظَمَةِ، وَسَعَةِ صِفَاتِ الْكَمَالِ للهِ -تَعَالَىٰ-؛ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ اللهُ الَّذِي لَهُ جَمِيعُ مَعَانِي الْأُلُوهِيَّةِ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْأُلُوهِيَّةَ غَيْرُهُ، فَأُلُوهِيَّةُ غَيْرِهِ وَعِبَادَةُ غَيْرِهِ بَاطِلَةٌ ضَارَّةٌ فِي الْحَالِ وَالْمَآلِ؛ وَعِبَادَتُهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ هِيَ الْحَقُّ، الْمُوصِلَةُ إِلَىٰ كُلِّ كَمَالٍ، وَأَنَّهُ الْحَيُّ كَامِلُ الْحَيَاةِ، فَمِنْ كَمَالِ حَيَاتِهِ: أَنَّهُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الْقَدِيرُ، الْمُحِيطُ عِلْمُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، الْكَامِلُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ.

فَـ﴿ٱلْحَيُّ﴾ يَتَضَمَّنُ جَمِيعَ الصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةِ، وَ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ قَامَ بِنَفْسِهِ، وَاسْتَغْنَىٰ عَنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَقَامَ بِهَا فَأَوْجَدَهَا وَأَبْقَاهَا، وَأَمَدَّهَا بِكُلِّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي بَقَائِهَا؛ فَـ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ يَتَضَمَّنُ جَمِيعَ صِفَاتِ الْأَفْعَالِ؛ وَلِهَذَا وَرَدَ أَنَّ اسْمَ اللهِ الْأَعْظَمَ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾؛ فَإِنَّ هَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ يَدْخُلُ فِيهِمَا جَمِيعُ الْكَمَالَاتِ الذَّاتِيَّةِ وَالْفِعْلِيَّةِ.

وَمِنْ كَمَالِ حَيَاتِهِ وَقَيُّومِيَّتِهِ: أَنَّهُ ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ﴾؛ أَيْ: نُعَاس ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾؛ لِأَنَّهُمَا يَعْرِضَانِ لِلْمَخْلُوقِ الَّذِي يَعْتَرِيهِ الضَّعْفُ وَالْعَجْزُ وَالِانْحِلَالُ، وَيُنَزَّهُ عَنْهُمَا ذُو الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْجَلَالِ.

وَأَخْبَرَ أَنَّهُ مَالِكٌ لِجَمِيعِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، فَكُلُّهُمْ عَبِيدُهُ وَمَمَالِيكُهُ، لَا يَخْرُجُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ هَذَا الْوَصْفِ اللَّازِمِ؛ فَهُوَ الْمَالِكُ لِجَمِيعِ الْمَمَالِكِ، وَهُوَ الَّذِي اتَّصَفَ بِصِفَاتِ الْمُلْكِ الْكَامِلِ، وَالتَّصَرُّفِ التَّامِّ النَّافِذِ، وَالسُّلْطَانِ وَالْكِبْرِيَاءِ.

وَمِنْ تَمَامِ مُلْكِهِ: أَنَّهُ لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ؛ فَكُلُّ الْوُجَهَاءِ وَالشُّفَعَاءِ عَبِيدٌ لَهُ، مَمَالِيكُ لَا يُقْدِمُونَ عَلَىٰ الشَّفَاعَةِ لِأَحَدٍ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لَهُمْ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٤٤].

وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَاهُ اللهُ، وَلَا يَرْضَىٰ إِلَّا عَمَّنْ قَامَ بِتَوْحِيدِهِ وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ، فَمَنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِهَذَا؛ فَلَيْسَ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ نَصِيبٌ، وَأَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَنْ قَالَ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ**»(١).

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ عِلْمِهِ الْوَاسِعِ الْمُحِيطِ، وَأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِي الْخَلَائِقِ مِنَ الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ الَّتِي لَا نِهَايَةَ لَهَا، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِنَ الْأُمُورِ الْمَاضِيَةِ الَّتِي لَا

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كتاب العلم: باب الحرص علىٰ الحديث، (٩٩)، مِنْ حَدِيثِ: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، وَتَمَامُهُ: «... **أَوْ نَفْسِهِ**».
وَلَهُ بِلَفْظ: «... **مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ**».

حَدَّ لَهَا، وَأَنَّهُ لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُور: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وَأَنَّ الْخَلْقَ لَا يُحِيطُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ وَلَا مَعْلُومَاتِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ مِنْهُمَا، وَهُوَ مَا أَطْلَعَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ، وَهُوَ جُزْءٌ يَسِيرٌ جِدًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ عِلْمِ الْبَارِي، تَضْمَحِلُّ الْعُلُومُ كُلُّهَا فِي عِلْمِ الْبَارِي وَمَعْلُومَاتِهِ، كَمَا قَالَ أَعْلَمُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَهُمُ الرُّسُلُ وَالْمَلَائِكَةُ: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢].

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ، وَأَنَّ كُرْسِيَّهُ وَسِعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَأَنَّهُ قَدْ حَفِظَهُمَا بِمَا فِيهِمَا مِنَ الْعَوَالِمِ بِالْأَسْبَابِ وَالنِّظَامَاتِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ فِي مَخْلُوقَاتِهِ مَعَ ذَلِكَ، فَلَا يَئُودُهُ -أَيْ: يُثْقِلُهُ- حِفْظُهُمَا؛ لِكَمَالِ عَظَمَتِهِ، وَقُوَّةِ اقْتِدَارِهِ، وَسَعَةِ حِكْمَتِهِ فِي أَحْكَامِهِ.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ بِذَاتِهِ عَلَىٰ جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ، فَهُوَ الرَّفِيعُ الَّذِي بَايَنَ جَمِيعَ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ الْعَلِيُّ بِعَظَمَةِ صِفَاتِهِ، الَّذِي لَهُ كُلُّ صِفَةِ كَمَالٍ، وَمِنْ تِلْكَ الصِّفَاتِ أَكْمَلُهَا وَمُنْتَهَاهَا، وَهُوَ الْعَلِيُّ الَّذِي قَهَرَ جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَدَانَتْ لَهُ كُلُّ الْمَوْجُودَاتِ، وَخَضَعَتْ لَهُ الصِّعَابُ، وَذَلَّتْ لَهُ الرِّقَابُ.

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الْجَامِعُ لِجَمِيعِ صِفَاتِ الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْمَجْدِ، الَّذِي تُحِبُّهُ الْقُلُوبُ، وَتُعَظِّمُهُ الْأَرْوَاحُ، وَيَعْرِفُ الْعَارِفُونَ أَنَّ عَظَمَةَ كُلِّ مَوْجُودٍ -وَإِنْ جلت

عَنِ الصِّفَةِ-؛ فَإِنَّهَا مُضْمَحِلَّةٌ فِي جَانِبِ عَظَمَةِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ؛ فَتَبَارَكَ اللهُ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»(١).(*).

«هَذِهِ الْآيَةُ تَتَضَمَّنُ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ خَمْسَةً، وَهِيَ: اللهُ، الْحَيُّ، الْقَيُّومُ، الْعَلِيُّ، الْعَظِيمُ.

وَتَتَضَمَّنُ مِنْ صِفَاتِ اللهِ سِتًّا وَعِشْرِينَ صِفَةً؛ مِنْهَا خَمْسُ صِفَاتٍ تَضَمَّنَتْهَا هَذِهِ الْأَسْمَاءُ.

السَّادِسَةُ: انْفِرَادُهُ بِالْأُلُوهِيَّةِ.

السَّابِعَةُ: انْتِفَاءُ السِّنَةِ وَالنَّوْمِ فِي حَقِّهِ؛ لِكَمَالِ حَيَاتِهِ وَقَيُّومِيَّتِهِ.

الثَّامِنَةُ: عُمُومُ مُلْكِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

التَّاسِعَةُ: انْفِرَادُ اللهِ ﷻ بِالْمُلْكِ، وَنَأْخُذُهُ مِنْ تَقْدِيمِ الْخَبَرِ.

الْعَاشِرَةُ: قُوَّةُ السُّلْطَانِ وَكَمَالُهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إِثْبَاتُ الْعِنْدِيَّةِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَيْسَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، فَفِيهِ الرَّدُّ عَلَىٰ الْحُلُولِيَّةِ.

---

(١) «**تيسير اللطيف المنان**»: (ص١٧-١٩).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «شَرْحُ تَيْسِيرِ اللَّطِيفِ الْمَنَّانِ فِي خُلَاصَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» (الْمُحَاضَرَةُ الْأُولَىٰ)، الْأَحَدُ ١٦ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٤هـ| ٢٢-٩-٢٠١٣م.

الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إِثْبَاتُ الْإِذْنِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: عُمُومُ عِلْمِ اللهِ -تَعَالَىٰ-؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ وَالْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أَنَّهُ ﷻ لَا يَنْسَىٰ مَا مَضَىٰ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، وَلَا يَجْهَلُ مَا يَسْتَقْبِلُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾.

السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: كَمَالُ عَظَمَةِ اللهِ؛ لِعَجْزِ الْخَلْقِ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِهِ.

السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: إِثْبَاتُ الْكُرْسِيِّ، وَهُوَ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ.

التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ وَالْعِشْرُونَ وَالْحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: إِثْبَاتُ الْعَظَمَةِ، وَالْقُوَّةِ، وَالْقُدْرَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ لِأَنَّ عَظَمَةَ الْمَخْلُوقِ تَدُلُّ عَلَىٰ عَظَمَةِ الْخَالِقِ.

الثَّانِيَةُ وَالثَّالِثَةُ وَالرَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ: كَمَالُ عِلْمِهِ، وَرَحْمَتِهِ، وَحِفْظُهُ؛ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾.

الْخَامِسَةُ وَالْعِشْرُونَ: إِثْبَاتُ عُلُوِّ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾، وَمَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: أَنَّ اللهَ ﷻ عَالٍ بِذَاتِهِ، وَأَنَّ عُلُوَّهُ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةِ الْأَزَلِيَّةِ الْأَبَدِيَّةِ.

وَأَمَّا عُلُوُّ الصِّفَاتِ؛ فَهُوَ مَحَلُّ إِجْمَاعٍ مِنْ كُلِّ مَنْ يَدِينُ أَوْ يَتَسَمَّىٰ بِالْإِسْلَامِ.

السَّادِسَةُ وَالْعِشْرُونَ: إِثْبَاتُ الْعَظَمَةِ للهِ ﷻ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿**ٱلْعَظِيمُ**﴾»[1].(*).

«فَآيَةٌ احْتَوَتْ عَلَىٰ هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي هِيَ أَجَلُّ الْمَعَانِي وَأَفْرَضُهَا عَلَىٰ الْعِبَادِ؛ يَحِقُّ أَنْ تَكُونَ أَعْظَمَ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَيَحِقُّ لِمَنْ قَرَأَهَا مُتَدَبِّرًا مُتَفَقِّهًا أَنْ يَمْتَلِئَ قَلْبُهُ مِنَ الْيَقِينِ وَالْعِرْفَانِ وَالْإِيمَانِ، وَأَنْ يَكُونَ بِذَلِكَ مَحْفُوظًا مِنْ شُرُورِ الشَّيْطَانِ، وَقَدْ نَعَتَ الْبَارِي نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِهِ»[3].(*/٢).

أَسْأَلُ اللهَ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ- أَنْ يُحَقِّقَنَا بِالتَّوْحِيدِ، وَأَنْ يُحَقِّقَ فِينَا التَّوْحِيدَ، وَأَنْ يُحَقِّقَنَا بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَأَنْ يُمِيتَنَا عَلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَأَنْ يَحْشُرَنَا فِي زُمْرَةِ سَيِّدِ الْمُوَحِّدِينَ -صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ-.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصحَابِهِ أَجمَعِينَ.(*/٣).

---

(١) «**شرح العقيدة الواسطية**» ضمن مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين: (٨/ ١٤١-١٤٦).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «شَرْحُ الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ» (الْمُحَاضَرَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ)، الْأَرْبِعَاءُ ٣٠ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٢٨هـ| ١٢-٩-٢٠٠٧م.

(٣) «**تيسير اللطيف المنان**»: (ص١٩).

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةِ: «شَرْحُ تَيْسِيرِ اللَّطِيفِ الْمَنَّانِ فِي خُلَاصَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» (الْمُحَاضَرَةُ الْأُولَىٰ)، الْأَحَدُ ١٦ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٤هـ| ٢٢-٩-٢٠١٣م.

(*/ ٣) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ كِتَاب: «لِمَاذَا هِيَ أَعْظَمُ؟» (ص: ٤٣).

الدَّرْسُ الرَّابِعُ:

فِي كُلِّ مِحْنَةٍ مِنْحَةٌ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

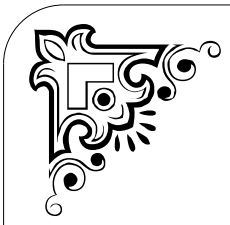

ابْتِلَاءُ الْمُؤْمِنِ كَالدَّوَاءِ لَهُ

فَإِنَّ الِابْتِلَاءَ مُرْتَبِطٌ بِحَيَاةِ الْإِنْسَانِ، فَمَا دَامَتْ هُنَاكَ حَيَاةٌ؛ فَهُنَاكَ -حَتْمًا- ابْتِلَاءٌ، وَالْإِنْسَانُ بِتَفْكِيرِهِ الْقَاصِرِ لَا يَعْلَمُ فَوَائِدَ الِابْتِلَاءِ الَّتِي تَعُودُ عَلَيْهِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَفِي آخِرَتِهِ، وَلَا يَعْلَمُ مَدَىٰ حِكْمَةِ اللهِ فِي اخْتِيَارِ ذَلِكَ لَهُ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-(١): «إِنَّ ابْتِلَاءَ الْمُؤْمِنِ كَالدَّوَاءِ لَهُ، يَسْتَخْرِجُ مِنْهُ الْأَدْوَاءَ الَّتِي لَوْ بَقِيَتْ فِيهِ لَأَهْلَكَتْهُ، أَوْ نَقَصَتْ ثَوَابَهُ وَأَنْزَلَتْ دَرَجَتَهُ؛ فَيَسْتَخْرِجُ الِابْتِلَاءُ وَالِامْتِحَانُ مِنْهُ تِلْكَ الْأَدْوَاءَ، وَيَسْتَعِدُّ بِذَلِكَ إِلَىٰ تَمَامِ الْأَجْرِ، وَعُلُوِّ الْمَنْزِلَةِ».(*).

«يَبْتَلِي اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْإِنْسَانَ عَلَىٰ الْمُسْتَوَىٰ الشَّخْصِيِّ فِيمَا يُصِيبُهُ فِي نَفْسِهِ أَوْ فِيمَنْ يُهِمُّهُ، فَيُنْزِلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ النَّاسِ مَا يَشَاءُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنْ ضُرُوبِ الْفِتَنِ وَالْمِحَنِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَبْتَلِيَ صَبْرَهُمْ، وَمِنْ أَجْلِ أَنْ يَعْلَمَ صِدْقَهُمْ.

---

(١) «إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ»: (٢/ ٩٣٥).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «فَوَائِدُ الِابْتِلَاءِ» - الْأَحَدُ ٢٧ مِنْ رَجَبٍ ١٤٤١هـ| ٢٢-٣-٢٠٢٠م.

وَيَأْتِي الِابْتِلَاءُ الِاجْتِمَاعِيُّ فِي هَذَا التَّفَاعُلِ الَّذِي يَكُونُ بَيْنَ الْكَائِنِ الْإِنْسَانِيِّ وَالْكَوَائِنِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْأُخْرَىٰ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي يُعَاشِرُهَا وَيُعَالِجُهَا وَيُخَالِطُهَا، فَيَأْتِي مَا يَأْتِي مِنْ تِلْكَ الْأُمُورِ الَّتِي يَقَعُ فِيهَا الْبَشَرُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ.

ثُمَّ يَأْتِي الِابْتِلَاءُ الْجَمَاعِيُّ الْأُمَمِيُّ عِنْدَمَا يُنْزِلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ بَعْضِ الْأُمَمِ، أَوْ عَلَىٰ بَعْضِ الْجَمَاعَاتِ مِنْ تَجَمُّعَاتِ الْبَشَرِ.. يُنْزِلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ نِقْمَتَهُ وَسَخَطَهُ عِنْدَمَا يَخْرُجُونَ عَنْ أَمْرِهِ؛ لِيَرُدَّهُمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِلَىٰ الْحَقِّ، أَوْ لِيُعَاقِبَهُمْ عَلَىٰ مَا أَسْلَفُوا مِنَ الْإِسَاءَةِ.

إِنَّ حِكْمَةَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي خَلْقِهِ اقْتَضَتْ أَنْ يَبْتَلِيَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ النَّاسَ بِالضَّرَّاءِ وَالسَّرَّاءِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عِنْدَمَا يَبْتَلِي الْإِنْسَانَ بِالضُّرِّ وَالشَّرِّ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَكُونُ تَقْوِيَةً لِلْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ.

وَيَكُونُ ذَلِكَ الِابْتِلَاءُ جِسْرًا يُوصِلُ إِلَىٰ أَكْمَلِ الْغَايَاتِ، وَهُوَ وَسِيلَةٌ لِلتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ، وَهُوَ تَمْحِيصٌ لِلْمُؤْمِنِ، وَتَخْلِيصٌ لَهُ مِنَ الشَّوَائِبِ الْمُنَافِيَةِ لِلْإِيمَانِ.

وَهُوَ رَدْعٌ وَتَحْذِيرٌ مِنَ الْغُرُورِ، وَهُوَ رَحْمَةٌ بِالْعُصَاةِ، وَتَخْفِيفٌ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَيْضًا هُوَ إِقَامَةُ حُجَّةِ الْعَدْلِ عَلَىٰ الْخَلْقِ فِي الْأَرْضِ وَعَلَىٰ الْعِبَادِ»(١).(*).

❊❊❊

(١) «**نَضْرَةُ النَّعِيمِ**»: (١/ ١٠ - ١٨)، باختصار.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةِ: «الدُّنْيَا دَارُ ابْتِلَاءٍ» (الْمُحَاضَرَةُ الثَّالِثَةُ)، الْجُمُعَةُ ٤ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٢٦هـ|٧-١٠-٢٠٠٥م.

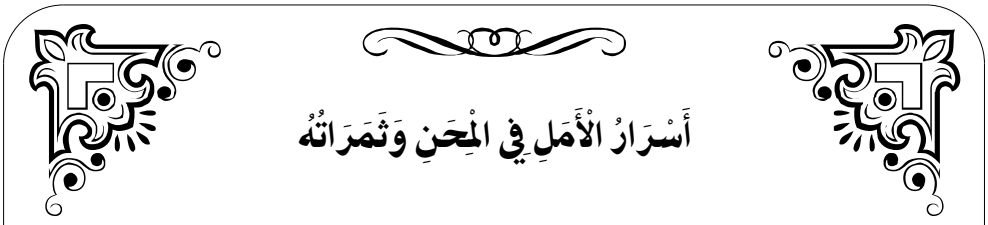

أَسْرَارُ الْأَمَلِ فِي الْمِحَنِ وَثَمَرَاتُهُ

فِي الْأَمَلِ سِرٌّ لَطِيفٌ؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَا الْأَمَلُ مَا تَهَنَّىٰ لِأَحَدٍ عَيْشٌ، لَوْ لَا أَنَّ الْإِنْسَانَ يَأْمُلُ، وَلَوْ لَا أَنَّ الْإِنْسَانَ عِنْدَهُ أَمَلٌ فِي أَنْ يَحْدُثَ شَيْءٌ مَا تَتَغَيَّرُ بِهِ الْأَحْوَالُ، وَتَسْعَدُ بِهِ الْحَيَاةُ.

لَوْ لَا أَنَّ الْإِنْسَانَ يَأْمُلُ أَنْ يَمُنَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِتَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ مِنَ الصَّعْبِ إِلَىٰ السَّهْلِ، وَمِنَ التَّعْسِيرِ إِلَىٰ التَّيْسِيرِ.

لَوْ لَا هَذَا الْأَمَلُ؛ مَا تَهَنَّىٰ أَحَدٌ بِعَيْشٍ، وَلَا طَابَتْ نَفْسُ إِنْسَانٍ أَنْ يَشْرَعَ فِي عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَغْرِسُ غَرْسًا؛ فَهَذَا الْغَرْسُ لَا يُؤْتِي ثَمَرَتَهُ وَلَا أُكُلَهُ إِلَّا بَعْدَ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ.

لَوْ لَا الْأَمَلُ؛ مَا غَرَسَ إِنْسَانٌ غَرْسًا، وَلَا بَنَىٰ أَحَدٌ بَيْتًا؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ عِنْدَمَا يَأْمُلُ أَنْ يَعِيشَ طَوِيلًا، وَيَبْنِيَ بَيْتًا؛ فَإِنَّهُ بِرَجَاءِ أَنْ يُعَمِّرَ هَذَا الْبَيْتَ، وَأَنْ يَعِيشَ فِيهِ سَنَوَاتٍ طِوَالًا.

لَوْ لَا أَنَّهُ قَدِ ارْتَكَزَ فِي نَفْسِهِ الْأَمَلُ؛ مَا بَنَىٰ أَحَدٌ بَيْتًا، وَمَا غَرَسَ أَحَدٌ غَرْسًا، وَمَا عَمِلَ أَحَدٌ عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

فَالْأَمَلُ فِيهِ سِرٌّ لَطِيفٌ، وَمِنْ أَجْلِهِ جَعَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هَذِهِ الْحَيَاةَ مَبْنِيَّةً عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ الَّذِي يَحْيَا عَلَيْهِ النَّاسُ؛ وَإِلَّا لَتَوَقَّفَتْ مَعَايِشُ النَّاسِ، وَمَا عَمِلَ أَحَدٌ فِي الْحَيَاةِ عَمَلًا.(*).

فَمَهْمَا اشْتَدَّتْ عَلَى الْمَرْءِ الْمِحْنَةُ؛ فَلَا يَيْأَسْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا؛ «فَإِنَّ الرَّجَاءَ يُوجِبُ لِلْعَبْدِ السَّعْيَ وَالِاجْتِهَادَ فِيمَا رَجَاهُ، وَالْإِيَاسُ يُوجِبُ لَهُ التَّثَاقُلَ وَالتَّبَاطُؤَ، وَأَوْلَىٰ مَا رَجَا الْعِبَادُ: فَضْلُ اللهِ، وَإِحْسَانُهُ، وَرَحْمَتُهُ وَرَوْحُهُ»(٢).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وَرَوْحُ اللهِ هُنَا: رَحْمَتُهُ(٣) الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، فَلَا يَجُوزُ الْوُقُوفُ مِنْهَا مَوْقِفَ الْيَأْسِ وَالْقُنُوطِ؛ مَهْمَا اشْتَدَّتْ بِالْإِنْسَانِ الْمِحَنُ، وَتَكَالَبَتْ عَلَيْهِ الرَّزَايَا؛ لِأَنَّ اللهَ ﷻ قَادِرٌ عَلَىٰ خَلْقِ الْفَرَجِ، وَتَفْرِيجِ الْكَرْبِ، وَتَبْدِيدِ الْخُطُوبِ، وَالشَّكُّ فِي ذَلِكَ مَدْعَاةٌ لِنِسْبَةِ النَّقْصِ وَالْعَجْزِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَاعْتِقَادُ ذَلِكَ بِاللهِ ﷻ كُفْرٌ بِجَلَالِهِ وَكَمَالِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ مُحَاضَرَة: «حُبُّ الدُّنْيَا وَطُولُ الْأَمَلِ» - الثُّلَاثَاءُ ٨ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٢٦هـ| ١١-١٠-٢٠٠٥م.

(٢) «**تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ**»: (ص ٤٠٤).

(٣) أَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «**التَّفْسِيرِ**»: (٢/ ٢٢٢، رقم ١٣٣٧)، وَالطَّبَرِيُّ فِي «**جَامِعِ الْبَيَانِ**»: (١٣/ ٤٩)، ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي «**التَّفْسِيرِ**»: (٧/ ٢١٩٠، رقم ١١٩١١)، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، عَنْ قَتَادَةَ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**لَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ**﴾، قَالَ: «**مِنْ رَحْمَةِ اللهِ**». وقال الضحاك والسدي، بنحوه.

وَلَقَدْ نَهَىٰ اللهُ ﷻ عَنْ هَذَا الْيَأْسِ وَذَلِكَ الْقُنُوطِ؛ مَهْمَا كَانَتِ الْحَالُ الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا الْعَبْدُ، وَاسْتَقَرَّتْ فِيهَا الشِّدَّةُ.

قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الشورىٰ: ٢٨].

لَقَدْ ذَكَرَ اللهُ ﷻ أَحْوَالًا لِعِبَادِهِ بَلَغَ فِيهَا بَعْضُهُمْ مَبْلَغَ الْحَرَجِ، وَكَادُوا فِيهَا أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لِلْيَأْسِ، فَجَاءَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ الْفَرَجُ، وَأَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ بِتَبْدِيدِ الشَّدَائِدِ، وَإِزَالَةِ الْكُرَبِ.

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

بَعْدَ هَذَا الزِّلْزَالِ الَّذِي مَلَأَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ، وَبَعْدَ تِلْكَ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ الَّتِي رَكِبَتْهُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ؛ جَاءَ نَصْرُ اللهِ، وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

فَأَمَامَ هَذِهِ الْقُدْرَةِ الرَّبَّانِيَّةِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَسَرَّبَ إِلَىٰ النُّفُوسِ الْيَأْسُ، وَلَا أَنْ يَسْتَحْكِمَ فِيهَا الْقُنُوطُ مَا دَامَتْ قُدْرَةُ اللهِ ﷻ أَقْوَىٰ مِنْ كُلِّ الشَّدَائِدِ وَالْمِحَنِ، وَمَا دَامَ سُلْطَانُهُ فَوْقَ كُلِّ هَذَا الْوُجُودِ؛ ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

«يُخْبِرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَمْتَحِنَ عِبَادَهُ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْمَشَقَّةِ، لَا بُدَّ مِنْ هَذَا الِامْتِحَانِ كَمَا فَعَلَ بِمَنْ قَبْلَهُمْ؛ فَهِيَ سُنَّتُهُ الْجَارِيَةُ الَّتِي لَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَغَيَّرُ؛ أَنَّ مَنْ قَامَ بِدِينِهِ وَشَرْعِهِ؛ لَا بُدَّ أَنْ يَبْتَلِيَهُ، فَإِنْ صَبَرَ عَلَىٰ أَمْرِ اللهِ، وَلَمْ يُبَالِ بِالْمَكَارِهِ الْوَاقِفَةِ فِي سَبِيلِهِ؛ فَهُوَ الصَّادِقُ الَّذِي قَدْ نَالَ مِنَ السَّعَادَةِ كَمَالَهَا، وَمِنَ السِّيَادَةِ آلَتَهَا.

وَمَنْ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ؛ بِأَنْ صَدَّتْهُ الْمَكَارِهُ عَمَّا هُوَ بِصَدَدِهِ، وَثَنَتْهُ الْمِحَنُ عَنْ مَقْصِدِهِ؛ فَهُوَ الْكَاذِبُ فِي دَعْوَىٰ الْإِيمَانِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحَلِّي، وَلَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّمَنِّي وَمُجَرَّدِ الدَّعَاوَىٰ؛ حَتَّىٰ تُصَدِّقَهُ الْأَعْمَالُ أَوْ تُكَذِّبَهُ»[1].

فَقَدْ جَرَىٰ عَلَىٰ الْأُمَمِ الْأَقْدَمِينَ مَا ذَكَرَ اللهُ عَنْهُمْ: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾؛ أَيِ: الْفَقْرُ، وَالْأَمْرَاضُ فِي أَبْدَانِهِمْ، ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ بِأَنْوَاعِ الْمَخَاوِفِ؛ مِنَ التَّهْدِيدِ

---

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي «**الزُّهْدِ**»: (ص ٤٢٥، رقم ١٥٦٥)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «**الْمُصَنَّفِ**»: (١١/ ٢٢) و (١٣/ ٥٠٤)، وفي «**الْإِيمَانِ**»: (ص ٣٨، رقم ٩٣)، وَأَحْمَدُ فِي «**الزُّهْدِ**»: (ص ٢١٣، رقم ١٤٨٣)، وَابْنُ بَطَّةَ فِي «**الْإِبَانَةِ**»: (٢/ ٨٠٥، رقم ١٠٩٣ و١٠٩٤)، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «**الشُّعَبِ**»: (١/ ١٥٨ - ١٥٩، رقم ٦٥)، وَالْخَطِيبُ فِي «**اقْتِضَاءِ الْعِلْمِ الْعَمَلِ**»: (ص ٤٢ - ٤٣، رقم ٥٦)، مِنْ طُرُقٍ بَعْضِهَا جَيِّدٍ، عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: «**لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحَلِّي وَلَا بِالتَّمَنِّي، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ، وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ، مَنْ قَالَ حَسَنًا وَعَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ رَدَّهُ اللهُ عَلَىٰ قَوْلِهِ، وَمَنْ قَالَ حَسَنًا وَعَمِلَ صَالِحًا رَفَعَهُ الْعَمَلُ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ:** ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]».

وَالْأَثَر وعَزَاهُ السُّيُوطِيّ فِي «**الدُّرِّ الْمَنْثُورِ**»: (٥/ ٢٤٦) إِلَىٰ عبد بن حميد أيضا، ونقل المناوي في «**فيض القدير**»: (٥/ ٣٥٦) عن الحافظ العلائي تجويد إسناده، وروي عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ اللَّيْثِيِّ وقتادة نحوه، وروي مرفوعا ولا يصح.

بِالْقَتْلِ، وَالنَّفْيِ، وَأَخْذِ الْأَمْوَالِ، وَقَتْلِ الْأَحِبَّةِ، وَأَنْوَاعِ الْمَضَارِّ؛ حَتَّىٰ وَصَلَتْ بِهِمُ الْحَالُ وَآلُ بِهِمُ الزِّلْزَالُ إِلَىٰ أَنِ اسْتَبْطَئُوا نَصْرَ اللهِ مَعَ يَقِينِهِمْ بِهِ؛ وَلَكِنْ لِشِدَّةِ الْأَمْرِ وَضِيقِهِ قَالَ: ﴿ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾؟ فَلَمَّا كَانَ الْفَرَجُ عِنْدَ الشِّدَّةِ -وَكُلَّمَا ضَاقَ الْأَمْرُ اتَّسَعَ-؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

فَهَكَذَا كُلُّ مَنْ قَامَ بِالْحَقِّ فَإِنَّهُ يُمْتَحَنُ، فَكُلَّمَا اشْتَدَّتْ عَلَيْهِ وَصَعُبَتْ، إِذَا صَبَرَ وَثَابَرَ عَلَىٰ مَا هُوَ عَلَيْهِ؛ انْقَلَبَتِ الْمِحْنَةُ فِي حَقِّهِ مِنْحَةً، وَالْمَشَقَّاتُ رَاحَاتٍ، وَأَعْقَبَهُ ذَلِكَ الِانْتِصَارُ عَلَىٰ الْأَعْدَاءِ، وَشِفَاءُ مَا فِي قَلْبِهِ مِنَ الدَّاءِ(١).

وَهَذِهِ الْآيَةُ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وَهِيَ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

فَعِنْدَ الِامْتِحَانِ يُكْرَمُ الْمَرْءُ أَوْ يُهَانُ»(٢).(*).

وَقَالَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: **﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾** [الأنعام: ٦٤].

---

(١) انظُرْ: «**الْوَابِلَ الصَّيِّبَ**»: (ص ٦٦).

(٢) «**تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ**» (ص ٩٦).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ خُطْبَة: «الْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ» - الْجُمُعَةُ ٢٧ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٦هـ| ١٩-١٢-٢٠١٤م.

«**قُلْ لَهُمْ**: اللهُ -سُبْحَانَهُ- يُخَلِّصُكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مِنَ الشَّدَائِدِ، وَمِنَ الظُّلُمَاتِ، وَمِنْ كُلِّ غَمٍّ شَدِيدٍ»(١). (*).

وَقَالَ ﷻ: ﴿**وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ**﴾ [المؤمنون: ٨٨].

«وَهُوَ الَّذِي لَهُ الْقُدْرَةُ الْكَامِلَةُ عَلَىٰ حِمَايَةِ مَنِ احْتَمَىٰ بِهِ، مَنِ اسْتَجَارَ بِهِ فَأَجَارَهُ، كَفَاهُ وَحَمَاهُ، وَمَنْ أَرَادَ بِهِ سُوءًا؛ فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ بَعْدَ اللهِ أَحَدًا يُؤَمِّنُهُ فَيَكْفِيهِ وَيَحْمِيهِ، أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُ»(٣). (*/٢).

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟

قَالَ: «**الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ**(٥)، **يُبْتَلَىٰ الرَّجُلُ عَلَىٰ قَدْرِ دِينِهِ**(٦)، **فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ؛ زِيدَ فِي بَلَائِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ**(٧)؛

---

(١) «**المعين علىٰ تدبر الكتاب المبين**»: (ص١٣٥).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» -[الأنعام: ٦٤].

(٣) «**المعين علىٰ تدبر الكتاب المبين**»: (ص٣٤٧).

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» -[المؤمنون: ٨٨].

(٥) «**الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ**»، أي: الأشرف فالأشرف، والأعلىٰ فالأعلىٰ في الرتبة والمنزلة، يقال: هذا أمثل من هذا، أي: أفضل وأدنىٰ إلىٰ الخير، وأماثل الناس: خيارهم.

(٦) «**عَلَىٰ قَدْرِ دِينِهِ**»، أَيْ: مِقْدَارِهِ ضَعْفًا وَقُوَّةً، وَنَقْصًا وَكَمَالًا.

(٧) «**فِي دِينِهِ رِقَّةٌ**»، أَيْ: ضَعْفٌ.

خُفِّفَ عَنْهُ، وَمَا يَزَالُ الْبَلاءُ بِالْمُؤْمِنِ حَتَّىٰ يَمْشِيَ عَلَىٰ الْأَرْضِ وَلَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»(١). رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

وَرَوَىٰ الْبُخَارِيُّ(٢) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مَا يُبَيِّنُ أَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَصْفُ لِأَحَدٍ؛ وَلَوْ نَالَ مِنْهَا مَا عَسَاهُ أَنْ يَنَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ**(٣)».

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ**»(٤). رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ.(*).

---

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «**الْجَامِعِ**»: كتاب الزهد: باب ما جاء في الصبر علىٰ البلاء، (٢٣٩٨)، وَابْنُ مَاجَهْ فِي «**السُّنَنِ**»: كتاب الفتن: باب الصبر علىٰ البلاء، (٤٠٢٣)، وأحمد في «**المسند**»: (١/ ١٧٢، رقم١٤٨١) واللفظ له.
قَالَ التِّرْمِذِيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وَكَذَا صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «**الصَّحِيحَةِ**»: (١/ ٢٧٣، رقم ١٤٣).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كتاب المرضىٰ: باب ما جاء في كفارة المرض، (٥٦٤٥)، مِنْ حَدِيثِ: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

(٣) «**يُصِبْ مِنْهُ**»، أَيِ: ابْتَلاه بالمَصَايب ليُثِيبَه عَلَيْهَا، يُقَالُ: مُصِيبَة ومَصُوبَة ومُصَابَة، والجمعُ: مَصَايب ومَصَاوِب، وَهُوَ: الْأَمْرُ الْمَكْرُوهُ ينْزِل بالإنسانِ.

(٤) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «**الْجَامِعِ**»: كتاب الزهد: باب ما جاء في الصبر علىٰ البلاء، (٢٣٩٦)، وَابْنُ مَاجَهْ فِي «**السُّنَنِ**»: كتاب الفتن: باب الصبر علىٰ البلاء، (٤٠٣١)، مِنْ حَدِيثِ: أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب»، وكذا حَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «**الصَّحِيحَةِ**»: (١/ ٢٧٦، رقم ١٤٦).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «فَوَائِدُ الِابْتِلَاءِ» - الْأَحَدُ ٢٧ مِنْ رَجَبٍ ١٤٤١هـ| ٢٢-٣-٢٠٢٠م.

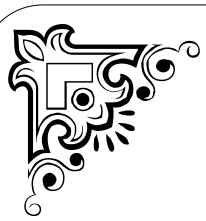

الْمِحَنُ جِسْرٌ إِلَى الْجَنَّةِ

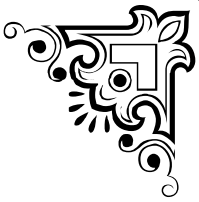

«إِنَّ مِنَ الْجَهْلِ أَنْ يَخْفَىٰ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ مُرَادُ التَّكْلِيفِ؛ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ عَلَىٰ عَكْسِ الأَغْرَاضِ، فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَأْنَسَ بِانْعِكَاسِ الْأَغْرَاضِ، فَإِنْ دَعَا وَسَأَلَ بُلُوغَ غَرَضِهِ؛ تَعَبَّدَ اللهَ بِالدُّعَاءِ، فَإِنْ أُعْطِيَ مُرَادَهُ شَكَرَ، وَإِنْ لَمْ يَنَلْ مُرَادَهُ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يُلِحَّ فِي الطَّلَبِ، مَعَ عِلْمِهِ أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لِبُلُوغِ الْأَغْرَاضِ، وَلْيَقُلْ لِنَفْسِهِ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وَمِنْ أَعْظَمِ الْجَهْلِ: أَنْ يَمْتَعِضَ فِي بَاطِنِهِ لِانْعِكَاسِ أَغْرَاضِهِ، وَرُبَّمَا اعْتَرَضَ فِي الْبَاطِنِ، أَوْ رُبَّمَا قَالَ: حُصُولُ غَرَضِي لَا يَضُرُّ، وَدُعَائِي لَمْ يُسْتَجَبْ[1]! وَهَذَا

---

(١) أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كتاب الدعوات: باب يستجاب للعبد ما لم يعجل، (٦٣٤٠)، ومُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كتاب الذكر والدعاء: باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل، (٢٧٣٥)، مِنْ حَدِيثِ: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ**» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الِاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: يَقُولُ: «**قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ**».

كُلُّهُ دَلِيلٌ عَلَىٰ جَهْلِهِ، وَقِلَّةِ إِيمَانِهِ وَتَسْلِيمِهِ لِلْحِكْمَةِ، وَمَنِ الَّذِي حَصَلَ لَهُ غَرَضٌ ثُمَّ لَمْ يُكَدَّرْ؟!!»(١). (*).

«فَإِذَا تَأَمَّلْتَ حِكْمَتَهُ ﷻ فِيمَا ابْتَلَىٰ بِهِ عِبَادَهُ وَصَفْوَتَهُ بِمَا سَاقَهُمْ بِهِ إِلَىٰ أَجَلِّ الْغَايَاتِ وَأَكْمَلِ النِّهَايَاتِ الَّتِي لَمْ يَكُونُوا يَعْبُرُونَ إِلَيْهَا إِلَّا عَلَىٰ جِسْرٍ مِنَ الِابْتِلَاءِ وَالِامْتِحَانِ.

وَكَانَ ذَلِكَ الْجِسْرُ لِكَمَالِهِ كَالْجِسْرِ الَّذِي لَا سَبِيلَ إِلَىٰ عُبُورِهِمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ إِلَّا عَلَيْهِ، وَكَانَ ذَلِكَ الِابْتِلَاءُ وَالِامْتِحَانُ عَيْنَ الْمَنْهَجِ فِي حَقِّهِمْ وَالْكَرَامَةِ.

فَصُورَتُهُ صُورَةُ ابْتِلَاءٍ وَامْتِحَانٍ، وَبَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَالنِّعْمَةُ وَالْمِنَّةُ؛ فَكَمْ للهِ مِنْ نِعْمَةٍ جَسِيمَةٍ وَمِنَّةٍ عَظِيمَةٍ تُجْنَىٰ مِنْ قُطُوفِ الِابْتِلَاءِ وَالِامْتِحَانِ؟!!

فَتَأَمَّلْ حَالَ أَبِينَا آدَمَ -عَلَىٰ نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَمَا آلَتْ إِلَيْهِ مِحْنَتُهُ؛ مِنَ الِاصْطِفَاءِ وَالِاجْتِبَاءِ، وَالتَّوْبَةِ وَالْهِدَايَةِ، وَرِفْعَةِ الْمَنْزِلَةِ.

وَلَوْ لَا تِلْكَ الْمِحْنَةُ الَّتِي جَرَتْ عَلَيْهِ، وَهِيَ إِخْرَاجُهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَتَوَابِعُ ذَلِكَ؛ لَمَا وَصَلَ إِلَىٰ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ؛ فَكَمْ بَيْنَ حَالَتِهِ الْأُولَىٰ وَحَالَتِهِ الثَّانِيَةِ فِي نِهَايَتِهِ!!

وَتَأَمَّلْ حَالَ أَبِينَا الثَّانِي نُوحٍ ﷺ وَمَا آلَتْ إِلَيْهِ مِحْنَتُهُ وَصَبْرُهُ عَلَىٰ قَوْمِهِ تِلْكَ الْقُرُونَ كُلَّهَا، حَتَّىٰ أَقَرَّ اللهُ عَيْنَهُ، وَأَغْرَقَ أَهْلَ الْأَرْضِ بِدَعْوَتِهِ، وَجَعَلَ الْعَالَمَ بَعْدَهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ.

---

(١) «**صَيْدُ الْخَاطِرِ**»: (ص ٣٩٩).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «دَوَاءُ الْكَرْبِ وَعِلَاجُ الْهَمِّ وَالْغَمِّ» - الْجُمُعَةُ ٢٢ مِنَ الْمُحَرَّمِ ١٤٣٩هـ| ١٣-١٠-٢٠١٧م.

وَجَعَلَهُ خَامِسَ خَمْسَةٍ، وَهُمْ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، الَّذِينَ هُمْ أَفْضَلُ الرُّسُلِ، وَأَمَرَ رَسُولَهُ وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَصْبِرَ كَصَبْرِهِ، وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ بِالشُّكْرِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، وَوَصَفَهُ بِكَمَالِ الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ.

ثُمَّ تَأَمَّلْ حَالَ أَبِينَا الثَّالِثِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ إِمَامِ الْحُنَفَاءِ، وَشَيْخِ الْأَنْبِيَاءِ، وَعَمُودِ الْعَالَمِ، وَخَلِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مِنْ بَنِي آدَمَ.

وَتَأَمَّلْ مَا آلَتْ إِلَيْهِ مِحْنَتُهُ وَصَبْرُهُ، وَبَذْلُهُ نَفْسَهُ للهِ تَعَالَىٰ، وَتَأَمَّلْ كَيْفَ آلَ بِهِ بَذْلُهُ للهِ نَفْسَهُ، وَنَصْرُهُ دِينَهُ إِلَىٰ أَنِ اتَّخَذَهُ اللهُ خَلِيلًا لِنَفْسِهِ، وَأَمَرَ رَسُولَهُ وَخَلِيلَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَتَّبِعَ مِلَّتَهُ.

وَأُنَبِّهُكَ عَلَىٰ خَصْلَةٍ وَاحِدَةٍ مِمَّا أَكْرَمَهُ اللهُ -تَعَالَىٰ- بِهِ فِي مِحْنَتِهِ بِذَبْحِ وَلَدِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ جَازَاهُ عَلَىٰ تَسْلِيمِهِ وَلَدَهُ لِأَمْرِ اللهِ بِأَنْ بَارَكَ فِي نَسْلِهِ وَكَثَّرَهُ؛ حَتَّىٰ مَلَأَ السَّهْلَ وَالْجَبَلَ؛ فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَا يَتَكَرَّمُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، وَهُوَ أَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ، فَمَنْ تَرَكَ لِوَجْهِهِ أَمْرًا، أَوْ فَعَلَهُ لِوَجْهِهِ؛ بَذَلَ اللهُ لَهُ أَضْعَافَ مَا تَرَكَهُ مِنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، وَجَازَاهُ بِأَضْعَافِ مَا فَعَلَهُ لِأَجْلِهِ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً.

فَلَمَّا أُمِرَ إِبْرَاهِيمُ بِذَبْحِ وَلَدِهِ، فَبَادَرَ بِأَمْرِ اللهِ، وَوَافَقَ عَلَيْهِ الْوَلَدُ أَبَاهُ، رِضًا مِنْهُمَا وَتَسْلِيمًا، وَعَلِمَ اللهُ مِنْهُمَا الصِّدْقَ وَالْوَفَاءَ؛ فَدَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ، وَأَعْطَاهُمَا مَا أَعْطَاهُمَا مِنْ فَضْلِهِ.

وَكَانَ مِنْ بَعْضِ عَطَايَاهُ: أَنْ بَارَكَ فِي ذُرِّيَّتِهِمَا؛ حَتَّىٰ مَلَئُوا الْأَرْضَ، فَإِنَّ الْمَقْصُودَ بِالْوَلَدِ: إِنَّمَا هُوَ التَّنَاسُلُ وَتَكْثِيرُ الذُّرِّيَّةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، وَقَالَ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠].

فَغَايَةُ مَا كَانَ يَحْذَرُ وَيَخْشَىٰ مِنْ ذَبْحِ وَلَدِهِ: انْقِطَاعُ نَسْلِهِ، فَلَمَّا بَذَلَ وَلَدَهُ للهِ، وَبَذَلَ الْوَلَدُ نَفْسَهُ؛ ضَاعَفَ اللهُ النَّسْلَ، وَبَارَكَ فِيهِ، وَكَثُرَ حَتَّىٰ مَلَئُوا الدُّنْيَا، وَجَعَلَ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فِي ذُرِّيَّتِهِ خَاصَّةً، وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ مُحَمَّدًا ﷺ.

ثُمَّ تَأَمَّلْ حَالَ الْكَلِيمِ مُوسَىٰ عليه السلام وَمَا آلَتْ إِلَيْهِ مِحْنَتُهُ مِنْ أَوَّلِ وِلَادَتِهِ إِلَىٰ مُنْتَهَىٰ أَمْرِهِ؛ حَتَّىٰ كَلَّمَهُ اللهُ مِنْهُ إِلَيْهِ تَكْلِيمًا، وَكَتَبَ لَهُ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ، وَرَفَعَهُ إِلَىٰ أَعْلَىٰ السَّمَاوَاتِ.

وَاحْتَمَلَ لَهُ مَا لَا يَحْتَمِلُ لِغَيْرِهِ؛ فَإِنَّهُ رَمَىٰ الْأَلْوَاحَ عَلَىٰ الْأَرْضِ حَتَّىٰ تَكَسَّرَتْ، وَأَخَذَ بِلِحْيَةِ نَبِيِّ اللهِ هَارُونَ، وَجَرَّهُ إِلَيْهِ، وَلَطَمَ وَجْهَ مَلَكِ الْمَوْتِ فَفَقَأَ عَيْنَهُ(١)، وَخَاصَمَ رَبَّهُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ فِي شَأْنِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَرَبُّهُ يُحِبُّهُ

(١) أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كتاب الجنائز: باب من أحب الدفن في الأرض المقدسة أو نحوها، (١٣٣٩)، وَمُسْلِمٌ فِي «**الصَّحِيحِ**»: كتاب الفضائل: باب من فضائل موسىٰ، (٢٣٧٢)، مِنْ حَدِيثِ: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قال: أرسل ملك الموت إلىٰ موسىٰ عليه السلام، فلما جاءه صكه ففقأ عينه، فرجع إلىٰ ربه فقال: أرسلتني إلىٰ عبد لا يريد الموت،... الحديث.

عَلَىٰ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَلَا سَقَطَ شَيْءٌ مِنْهُ مِنْ عَيْنِهِ، وَلَا سَقَطَتْ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَهُ، بَلْ هُوَ الْوَجِيهُ عِنْدَ اللهِ، الْقَرِيبُ.

وَلَوْ لَا مَا تَقَدَّمَ لَهُ مِنَ السَّوَابِقِ، وَتَحَمُّلِ الشَّدَائِدِ وَالْمِحَنِ الْعِظَامِ فِي اللهِ، وَمُقَاسَاةِ الْأَمْرِ الشَّدِيدِ بَيْنَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، ثُمَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمَا آذَوْهُ بِهِ، وَمَا صَبَرَ عَلَيْهِمْ للهِ.. لَوْ لَا ذَلِكَ؛ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ.

ثُمَّ تَأَمَّلْ حَالَ الْمَسِيحِ ﷺ وَصَبْرَهُ عَلَىٰ قَوْمِهِ، وَاحْتِمَالَهُ فِي اللهِ مَا تَحَمَّلَهُ مِنْهُمْ؛ حَتَّىٰ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ، وَطَهَّرَهُ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَانْتَقَمَ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَقَطَّعَهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَمَزَّقَهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ، وَسَلَبَهُمْ مُلْكَهُمْ وَفَخْرَهُمْ إِلَىٰ آخِرِ الدَّهْرِ.

فَإِذَا جِئْتَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَأَمَّلْتَ سِيرَتَهُ مَعَ قَوْمِهِ، وَصَبْرَهُ فِي اللهِ، وَاحْتِمَالَهُ مَا لَمْ يَحْتَمِلْهُ نَبِيٌّ قَبْلَهُ، وَتَلَوُّنَ الْأَحْوَالِ عَلَيْهِ؛ مِنْ سِلْمٍ وَحَرْبٍ، وَغِنًىٰ وَفَقْرٍ، وَخَوْفٍ وَأَمْنٍ، وَإِقَامَةٍ فِي وَطَنِهِ وَظَعْنٍ[1] عَنْهُ، وَتَرْكِهِ للهِ، وَقَتْلِ أَحِبَّائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَذَىٰ الْكُفَّارِ لَهُ بِسَائِرِ أَنْوَاعِ الْأَذَىٰ؛ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَالسِّحْرِ وَالْكَذِبِ، وَالِافْتِرَاءِ عَلَيْهِ وَالْبُهْتَانِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ صَابِرٌ عَلَىٰ أَمْرِ اللهِ، يَدْعُو إِلَىٰ اللهِ، فَلَمْ يُؤْذَ نَبِيٌّ مَا أُوذِيَ، وَلَمْ يَحْتَمِلْ فِي اللهِ مَا احْتَمَلَهُ، وَلَمْ يُعْطَ نَبِيٌّ مَا أُعْطِيَ.

---

(١) «ظَعَن» أَيْ: ذَهَبَ وَسَارَ.

فَرَفَعَ اللهُ لَهُ ذِكْرَهُ، وَقَرَنَ اسْمَهُ بِاسْمِهِ، وَجَعَلَهُ سَيِّدَ النَّاسِ كُلِّهِمْ، وَجَعَلَهُ أَقْرَبَ الْخَلْقِ إِلَيْهِ وَسِيلَةً، وَأَعْظَمَهُمْ عِنْدَهُ جَاهًا، وَأَسْمَعَهُمْ عِنْدَهُ شَفَاعَةً، وَكَانَتْ تِلْكَ الْمِحَنُ وَالِابْتِلَاءَاتُ عَيْنَ كَرَامَتِهِ، وَهِيَ مِمَّا زَادَهُ اللهُ بِهَا شَرَفًا وَفَضْلًا، وَسَاقَهُ بِهَا إِلَىٰ أَعْلَىٰ الْمَقَامَاتِ.

وَهَذَا حَالُ وَرَثَتِهِ مِنْ بَعْدِهِ، الْأَمْثَلِ فَالْأَمْثَلِ، كُلٌّ لَهُ نَصِيبٌ مِنَ الْمِحْنَةِ، يَسُوقُهُ اللهُ بِهِ إِلَىٰ كَمَالِهِ بِحَسَبِ مُتَابَعَتِهِ لَهُ، وَمَنْ لَا نَصِيبَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ؛ فَحَظُّهُ مِنَ الدُّنْيَا حَظُّ مَنْ خُلِقَ لَهَا وَخُلِقَتْ لَهُ، وَجُعِلَ خَلَاقُهُ وَنَصِيبُهُ فِيهَا، فَهُوَ يَأْكُلُ مِنْهَا رَغَدًا، وَيَتَمَتَّعُ فِيهَا حَتَّىٰ يَنَالَهُ نَصِيبُهُ مِنَ الْكِتَابِ، يُمْتَحَنُ أَوْلِيَاءُ اللهِ وَهُوَ فِي دَعَةٍ وَخَفْضِ عَيْشٍ، وَيَخَافُونَ وَهُوَ آمِنٌ، وَيَحْزَنُونَ وَهُوَ وَأَهْلُهُ فِي سُرُورٍ، لَهُمْ شَأْنٌ وَلَهُ شَأْنٌ، وَهُوَ فِي وَادٍ وَهُمْ فِي وَادٍ، هَمُّهُ مَا يُقِيمُ بِهِ جَاهَهُ، وَيَسْلَمُ بِهِ مَالُهُ، وَتُسْمَعُ بِهِ كَلِمَتُهُ، لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ مَا لَزِمَ، وَرَضِيَ مَنْ رَضِيَ، وَسَخِطَ مَنْ سَخِطَ.

وَهَمُّهُمْ إِقَامَةُ دِينِ اللهِ، وَإِعْلَاءُ كَلِمَتِهِ، وَإِعْزَازُ أَوْلِيَائِهِ، وَأَنْ تَكُونَ الدَّعْوَةُ لَهُ وَحْدَهُ، فَيَكُونُ هُوَ وَحْدَهُ الْمَعْبُودَ، لَا غَيْرُهُ، وَرَسُولُهُ الْمُطَاعَ لَا سِوَاهُ.

فَلِلَّهِ -سُبْحَانَهُ- مِنَ الْحِكَمِ فِي ابْتِلَائِهِ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ مَا تَتَقَاصَرُ عُقُولُ الْعَالَمِينَ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، وَهَلْ وَصَلَ مَنْ وَصَلَ إِلَىٰ الْمَقَامَاتِ الْمَحْمُودَةِ وَالنِّهَايَاتِ الْفَاضِلَةِ إِلَّا عَلَىٰ جِسْرِ الْمِحْنَةِ وَالِابْتِلَاءِ؟!

كَـــذَا الْمَعَـــالِي إِذَا مَـــا رُمْـــتَ تُـــدْرِكُهَا

فَـاعْبُرْ إِلَيْهَـا عَلَـىٰ جِسْـرٍ مِـنَ التَّعَـبِ[1]»[2].(*).

(١) البيت من البحر البسيط مأخوذ من قول أبي تمام حَبِيْب بن أَوْسٍ الطَّائِيّ (المتوفي: ٢٣١هـ) في القصيدة البائية المشهورة في «ديوانه»: (١/ ٤٠، القصيدة رقم ٣)، التي يمدح فيها المعتصم بعد فتح عمورية، ويقول في مطلعها:

(السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ ... فِي حَدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ)

فقال أَبُو تَمَّام (١/ ٧٣، البيت: ٦٨):

(بَصُرْتَ بِالرَّاحَةِ الكُبْرَىٰ فَلَمْ تَرَهَا ... تُنَالُ إِلَّا عَلَىٰ جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ)

(٢) «**مِفْتَاحَ دَارِ السَّعَادَةِ**»: (٢/ ٨٤٧ - ٨٥٣)، وَانظُرْ: «**نَضْرَةَ النَّعِيمِ**»: (١/ ١٦).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «الْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ» - الْجُمُعَةُ ٢٧ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٦هـ| ١٩-١٢-٢٠١٤م.

فِي كُلِّ مِحْنَةٍ مِنْحَةٌ فِي حَيَاةِ سَادَةِ الْبَشَرِ

إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً، وَأَعْظَمُهُمْ صَبْرًا، وَأَكْثَرُهُمْ أَمَلًا وَرَجَاءً فِي رَحْمَةِ اللهِ، وَحَيَاتُهُمْ هِيَ الْأُسْوَةُ، وَأَفْعَالُهُمُ الْقُدْوَةُ، قَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

«لَقَدْ كَانَ لَكُمْ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- فِي أَقْوَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَفْعَالِهِ، وَأَخْلَاقِهِ، وَثِقَتِهِ بِاللهِ، وَثَبَاتِهِ فِي الشَّدَائِدِ وَالْمِحَنِ، وَصَبْرِهِ عَلَىٰ الْمَكَارِهِ، وَقِتَالِهِ بِنَفْسِهِ، وَكُلِّ جُزْئِيَّاتِ سُلُوكِهِ فِي الْحَيَاةِ.. لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِ قُدْوَةٌ صَالِحَةٌ، وَخَصْلَةٌ حَسَنَةٌ مِنْ حَقِّهَا أَنْ يُؤْتَسَىٰ وَيُقْتَدَىٰ بِهَا لِمَنْ كَانَ يُؤَمِّلُ مُرْتَقِبًا ثَوَابَ اللهِ، وَيَرْجُو السَّعَادَةَ الْخَالِدَةَ يَوْمَ الدِّينِ، وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا فِي جَمِيعِ الْمَوَاطِنِ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ»(١). (*).

وَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

---

(١) «المعين علىٰ تدبر الكتاب المبين»: (ص٤٢٠).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [الأحزاب: ٢١].

«أُولَئِكَ النَّبِيُّونَ هُمُ الْمَخْصُوصُونَ بِالْهِدَايَةِ؛ فَاتَّبِعْ يَا رَسُولَ اللهِ هُدَاهُمْ، وَاسْلُكْ سَبِيلَهُمْ»(١).(*).

أَخْبَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ عَنْ أَمَلِ وَرَجَاءِ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَرْزُقَهُ ﷻ بِالْوَلَدِ الصَّالِحِ، فَكَانَتِ الْبُشْرَى مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، **قَالَ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٠-١٠١].

«**قَالَ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ** عليه السلام: رَبِّ هَبْ لِي وَلَدًا مِنْ ذُرِّيَّتِي يَكُونُ صَالِحًا مِنَ الصَّالِحِينَ، يَبْلُغُ أَوَانَ الْحُلُمِ، فَأَجَبْنَا دَعْوَتَهُ، وَبَشَّرْنَاهُ بِابْنٍ يَتَحَلَّىٰ بِالْعَقْلِ وَالْأَنَاةِ، وَضَبْطِ النَّفْسِ، وَقُوَّةِ الْإِرَادَةِ، فَوَلَدَتْ هَاجَرُ الْغُلَامَ الْحَلِيمَ إِسْمَاعِيلَ عليه السلام»(٣).(*/٢).

وَهَذِهِ بُشْرَى الْمَلَائِكَةِ لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام **بِأَنَّ اللهَ سَيَرْزُقُهُ وَلَدًا عَلَى كِبَرِ سِنِّهِ، قَالَ اللهُ** جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥١-٥٦].

---

(١) «المعين علىٰ تدبر الكتاب المبين»: (ص١٣٨).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [الأنعام: ٩٠].

(٣) «المعين علىٰ تدبر الكتاب المبين»: (ص٤٤٩).

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [الصافات: ١٠٠-١٠١].

«وَأَخْبِرْهُمْ يَا رَسُولَ اللهِ الْخَبَرَ الْهَامَّ وَقْتَ دُخُولِ الْمَلَائِكَةِ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، فَقَالُوا لَهُ: نُسَلِّمُ سَلَامًا.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ: إِنَّا مِنْكُمْ خَائِفُونَ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْكُلُوا الْعِجْلَ السَّمِينَ الَّذِي قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ؛ إِذْ كَانَ مَظْهَرُهُمْ لَا يُشْعِرُ بِذَلِكَ، وَلَا يَنِمُّ عَلَيْهِ.

قَالَ الرُّسُلُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام **-وَهُوَ يَتَصَوَّرُ أَنَّهُمْ ضَيْفٌ مِنَ الْبَشَرِ-**: لَا تَخَفْ مِنَّا، إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِوَلَدٍ ذَكَرٍ، غُلَامٍ فِي صِغَرِهِ، عَلِيمٍ فِي كِبَرِهِ، سَيَأْتِيكَ مِنْ زَوْجِكَ سَارَّةَ، وَهُوَ إِسْحَاقُ عليه السلام، فَنَحْنُ مَلَائِكَةٌ، رُسُلٌ مُرْسَلُونَ مِنْ رَبِّكَ؛ لِنُقَدِّمَ لَكَ هَذِهِ الْبِشَارَةَ.

فَلَمَّا بَشَّرُوهُ بِالْوَلَدِ؛ عَجِبَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ كِبَرِهِ وَكِبَرِ امْرَأَتِهِ، قَالَ: أَبَشَّرْتُمُونِي بِالْوَلَدِ مَعَ مَسِّ الْكِبَرِ بِي وَالشَّيْخُوخَةِ الْمُضْعِفَةِ عَادَةً عَنِ الْإِنْجَابِ؟!! فَبِأَيِّ سَبَبٍ لَدَيَّ أَمْلِكُهُ يَكُونُ مِنْ آثَارِهِ أَنْ أُنْجِبَ وَلَدًا؛ فَأَنْتُمْ تُبَشِّرُونَنِي بِهِ؟!!

قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لِإِبْرَاهِيمَ: بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ الثَّابِتِ الَّذِي قَضَاهُ اللهُ، بِأَنْ يُخْرِجَ مِنْكَ وَلَدًا ذَكَرًا تَكْثُرُ ذُرِّيَّتُهُ، وَهُوَ إِسْحَاقُ؛ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْآيِسِينَ مِنَ الْخَيْرِ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ: لَا أَحَدَ يَيْأَسُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ الْجَاهِلُونَ بِقُدْرَةِ اللهِ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ، وَخَلْقِ مَا يَشَاءُ»[1]. (*).

---

(١) «**المعين علىٰ تدبر الكتاب المبين**»: (ص٢٦٥).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» -[الحجر: ٥١-٥٦].

وَهَذَا يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ **أُسْوَةٌ وَقُدْوَةٌ فِي أَمَلِهِ وَرَجَائِهِ فِي رَبِّهِ، رَغْمَ مِحْنَتِهِ الشَّدِيدَةِ بِفَقْدِ يُوسُفَ وَأَخِيهِ، وَمِنْحَةُ اللهِ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **لَهُ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **بِرَدِّ أَوْلَادِهِ إِلَيْهِ**، «إِنَّ قِصَّةَ يُوسُفَ وَيَعْقُوبَ -عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- مِنْ أَحْسَنِ الْقِصَصِ وَأَوْضَحِهَا؛ لِمَا فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ التَّنَقُّلَاتِ مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ؛ مِنْ مِحْنَةٍ إِلَىٰ مِحْنَةٍ، وَمِنْ مِحْنَةٍ إِلَىٰ مِنْحَةٍ وَمِنَّةٍ، وَمِنْ ذُلٍّ إِلَىٰ عِزٍّ، وَمِنْ أَمْنٍ إِلَىٰ خَوْفٍ وَبِالْعَكْسِ، وَمِنْ مِلْكٍ إِلَىٰ رِقٍّ وَبِالْعَكْسِ، وَمِنْ فُرْقَةٍ وَشَتَاتٍ إِلَىٰ انْضِمَامٍ وَائْتِلَافٍ وَبِالْعَكْسِ، وَمِنْ سُرُورٍ إِلَىٰ حُزْنٍ وَبِالْعَكْسِ، وَمِنْ رَخَاءٍ إِلَىٰ جَدْبٍ وَبِالْعَكْسِ، وَمِنْ ضِيقٍ إِلَىٰ سَعَةٍ وَبِالْعَكْسِ، وَمِنْ وُصُولٍ إِلَىٰ عَوَاقِبَ حَمِيدَةٍ؛ فَتَبَارَكَ مَنْ قَصَّهَا وَجَعَلَهَا عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ»(١).(*).

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى

---

(١) «**تيسير اللطيف المنان**»: (ص٢٧١-٢٧٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «شَرْحُ تَيْسِيرِ اللَّطِيفِ الْمَنَّانِ فِي خُلَاصَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» (الْمُحَاضَرَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ)، الثُّلَاثَاءُ ٣ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٣٤هـ| ٨-١٠-٢٠١٣م.

ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٨٣-٩٢].

«**قَالَ نَبِيُّ اللهِ يَعْقُوبُ** عليه السلام: فَصَبْرِي عَلَىٰ الْمُصِيبَةِ الَّتِي نَزَلَتْ صَبْرٌ جَمِيلٌ، لَا شَكْوَىٰ مَعَهُ لِغَيْرِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَلَا أَعْمَلُ عَمَلًا لَا يَرْضَىٰ عَنْهُ رَبِّي؛ عَسَىٰ اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِيُوسُفَ وَبِنْيَامِينَ وَالْأَخِ الثَّالِثِ الَّذِي أَقَامَ بِمِصْرَ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ بِحُزْنِي وَوَجْدِي عَلَيْهِمْ، الْحَكِيمُ بِمَا يُدَبِّرُهُ وَيَقْضِيهِ.

وَابْتَعَدَ يَعْقُوبُ عليه السلام عَنْ بَنِيهِ، وَاشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَتَجَدَّدَ حُزْنُهُ عَلَىٰ يُوسُفَ، وَقَالَ: يَا حُزْنِيَ الشَّدِيدَ عَلَىٰ يُوسُفَ دُمْ، وَصَارَ يَبْكِي بُكَاءً كَثِيرًا، وَانْقَلَبَ سَوَادُ عَيْنَيْهِ بَيَاضًا، وَضَعُفَ بَصَرُهُ مِنْ شِدَّةِ الْحُزْنِ، وَكَثْرَةِ الْبُكَاءِ عَلَىٰ يُوسُفَ، فَهُوَ مُمْتَلِئٌ مِنَ الْحُزْنِ، مُمْسِكٌ عَلَيْهِ دَاخِلَ نَفْسِهِ لَا يَبُثُّهُ.

وَلَا يَتَنَافَىٰ هَذَا الْحُزْنُ مَعَ الرِّضَا بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ؛ لِأَنَّهُ أَلَمٌ نَفْسِيٌّ غَيْرُ إِرَادِيٍّ، لَا يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ دَفْعَهُ وَلَا رَفْعَهُ؛ لَكِنْ يَمْلِكُ أَلَّا يَعْمَلَ أَوْ يَقُولَ مَا لَا يُرْضِي اللهَ ﷻ.

فَهُوَ مُطَالَبٌ بِمَا يَمْلِكُ، وَلَا يُؤَاخَذُ عَلَىٰ شَيْءٍ غَيْرِ خَاضِعٍ لِإِرَادَتِهِ.

قَالَ إِخْوَةُ يُوسُفَ لِأَبِيهِمْ يَعْقُوبَ عليه السلام: تَاللهِ لَا تَزَالُ تَذْكُرُ يُوسُفَ تَفَجُّعًا، وَلَا تَفْتُرُ عَنْ حُبِّهِ، وَيَشْتَدُّ حُزْنُكَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ تَكُونَ شَدِيدَ الْمَرَضِ،

مُشْرِفًا عَلَىٰ الْهَلَاكِ، فَلَا تَنْتَفِعُ بِنَفْسِكَ، أَوْ تَكُونَ مِنَ الْأَمْوَاتِ بِسَبَبِ شِدَّةِ الْحُزْنِ وَالْهَمِّ وَالْأَسَىٰ.

قَالَ يَعْقُوبُ مُجِيبًا لِأَبْنَائِهِ: مَا أَشْكُو مَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ نَفْسِي مِنَ الضَّعْفِ وَالْمَرَضِ وَالْغَمِّ وَالْحَزَنِ إِلَّا إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، لَا إِلَيْكُمْ؛ فَهُوَ وَحْدَهُ كَاشِفُ الضُّرِّ وَالْبَلَاءِ.

وَإِنْ كُنْتُمْ تَلُومُونَنِي عَلَىٰ شَكْوَايَ لِرَبِّي عَلَىٰ حَالِي الَّتِي لَا أَمْلِكُ التَّغْيِيرَ فِيهَا، وَعَلَىٰ حُزْنِي الَّذِي لَا أَمْلِكُ صَرْفَهُ؛ فَإِنِّي أَعْلَمُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ وَإِحْسَانِهِ وَفَرَجِهِ مَا لَا تَعْلَمُونَهُ أَنْتُمْ، وَسَيَأْتِينِي بِالْفَرَجِ الْقَرِيبِ مِنْ حَيْثُ لَا أَحْتَسِبُ»(١). (*).

«قَالَ يَعْقُوبُ عليه السلام لِبَنِيهِ: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾؛ أَيِ: احْرِصُوا وَاجْتَهِدُوا عَلَىٰ التَّفْتِيشِ عَنْهُمَا، ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾؛ فَإِنَّ الرَّجَاءَ يُوجِبُ لِلْعَبْدِ السَّعْيَ وَالِاجْتِهَادَ فِيمَا رَجَاهُ، وَأَمَّا الْإِيَاسُ؛ فَيُوجِبُ لَهُ التَّثَاقُلَ وَالتَّبَاطُؤَ، وَأَوْلَىٰ مَا رَجَا الْعِبَادُ: فَضْلُ اللهِ وَإِحْسَانُهُ، وَرَحْمَتُهُ وَرَوْحُهُ.

﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: فَإِنَّهُمْ لِكُفْرِهِمْ يَسْتَبْعِدُونَ رَحْمَتَهُ، وَرَحْمَتُهُ بَعِيدَةٌ مِنْهُمْ؛ فَلَا تَتَشَبَّهُوا بِالْكَافِرِينَ.

---

(١) «المعين علىٰ تدبر الكتاب المبين»: (ص٢٤٥).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [يوسف: ٨٣-٨٦].

وَدَلَّ هَذَا عَلَىٰ أَنَّهُ بِحَسَبِ إِيمَانِ الْعَبْدِ يَكُونُ رَجَاؤُهُ لِرَحْمَةِ اللهِ وَرَوْحِهِ.

فَذَهَبُوا، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ قَالُوا مُتَضَرِّعِينَ إِلَيْهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾؛ أَيْ: قَدِ اضْطُرِرْنَا نَحْنُ وَأَهْلُنَا، وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مَدْفُوعَةٍ مَرْغُوبٍ عَنْهَا؛ لِقِلَّتِهَا، وَعَدَمِ وُقُوعِهَا الْمَوْقِعَ، ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ مَعَ عَدَمِ وَفَاءِ الْعِوَضِ، وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا بِالزِّيَادَةِ عَنِ الْوَاجِبِ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ بِثَوَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَلَمَّا انْتَهَىٰ الْأَمْرُ، وَبَلَغَ أَشُدَّهُ؛ رَقَّ لَهُمْ يُوسُفُ رِقَّةً شَدِيدَةً، وَعَرَّفَهُمْ بِنَفْسِهِ، وَعَاتَبَهُمْ، فَقَالَ: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾؟!!

أَمَّا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَظَاهِرٌ فِعْلُهُمْ فِيهِ، وَأَمَّا أَخُوهُ؛ فَلَعَلَّهُ -وَاللهُ أَعْلَمُ- قَوْلُهُمْ: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾، أَوْ أَنَّ الْحَادِثَ الَّذِي فَرَّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ هُمُ السَّبَبُ فِيهِ، وَهُمُ الْأَصْلُ الْمُوجِبُ لَهُ.

﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾: وَهَذَا نَوْعُ اعْتِذَارٍ لَهُمْ بِجَهْلِهِمْ، أَوْ تَوْبِيخٌ لَهُمْ؛ إِذْ فَعَلُوا فِعْلَ الْجَاهِلِينَ، مَعَ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي وَلَا يَلِيقُ مِنْهُمْ.

فَعَرَفُوا أَنَّ الَّذِي خَاطَبَهُمْ هُوَ يُوسُفُ، فَقَالُوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَىٰ، وَالتَّمْكِينِ فِي الدُّنْيَا، وَذَلِكَ بِسَبَبِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَىٰ، فَـ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾؛ أَيْ: يَتَّقِ فِعْلَ مَا حَرَّمَ اللهُ، وَيَصْبِرْ عَلَىٰ الْآلَامِ وَالْمَصَائِبِ، وَعَلَىٰ الْأَوَامِرِ بِامْتِثَالِهَا،

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ فَإِنَّ هَذَا مِنَ الْإِحْسَانِ، وَاللهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾؛ أَيْ: فَضَّلَكَ عَلَيْنَا بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَحَاسِنِ الشِّيَمِ، وَأَسَأْنَا إِلَيْكَ غَايَةَ الْإِسَاءَةِ، وَحَرِصْنَا عَلَىٰ إِيصَالِ الْأَذَىٰ إِلَيْكَ، وَالتَّبْعِيدِ لَكَ عَنْ أَبِيكَ، فَآثَرَكَ اللهُ تَعَالَىٰ، وَمَكَّنَكَ مِمَّا تُرِيدُ، ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾؛ وَهَذَا غَايَةُ الِاعْتِرَافِ مِنْهُمْ بِالْجُرْمِ الْحَاصِلِ مِنْهُمْ عَلَىٰ يُوسُفَ.

فَقَالَ لَهُمْ يُوسُفُ عليه السلام -كَرَمًا وَجُودًا-: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾؛ أَيْ: لَا أُثَرِّبُ عَلَيْكُمْ، وَلَا أَلُومُكُمْ، ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

فَسَمَحَ لَهُمْ سَمَاحًا تَامًّا، مِنْ غَيْرِ تَعْيِيرٍ لَهُمْ عَلَىٰ ذِكْرِ الذَّنْبِ السَّابِقِ، وَدَعَا لَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَهَذَا نِهَايَةُ الْإِحْسَانِ الَّذِي لَا يَتَأَتَّىٰ إِلَّا مِنْ خَوَاصِّ الْخَلْقِ، وَخِيَارِ الْمُصْطَفَيْنَ»(١).(*).

«هَذِهِ الْمِحْنَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي امْتَحَنَ اللهُ بِهَا نَبِيَّهُ وَصَفِيَّهُ يَعْقُوبَ عليه السلام؛ إِذْ قَضَىٰ بِالتَّفْرِيقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابْنِهِ يُوسُفَ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ فِرَاقِهِ سَاعَةً وَاحِدَةً، وَيُحْزِنُهُ أَشَدَّ الْحَزَنِ، فَتَمَّ لِهَذِهِ الْفُرْقَةِ مُدَّةٌ طَوِيلَةٌ وَيَعْقُوبُ لَمْ يُفَارِقِ الْحُزْنُ قَلْبَهُ،

---

(١) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ»: (ص ٤٠٤-٤٠٥).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مَا مَرَّ مُخْتَصَرٌ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «التَّسَامُحُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ» - الْجُمُعَةُ ١١ مِنْ جُمَادَىٰ الْآخِرَةِ ١٤٣٨هـ| ١٠-٣-٢٠١٧م.

وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ، ثُمَّ ازْدَادَ بِهِ الْأَمْرُ حِينَ اتَّصَلَ فِرَاقُ الِابْنِ الثَّانِي بِالْأَوَّلِ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ صَابِرٌ لِأَمْرِ اللهِ، مُحْتَسِبٌ الْأَجْرَ مِنَ اللهِ، وَقَدْ وَعَدَ مِنْ نَفْسِهِ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ، وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ وَفَّىٰ بِمَا وَعَدَ بِهِ، وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]؛ فَإِنَّ الشَّكْوَىٰ إِلَىٰ اللهِ لَا تُنَافِي الصَّبْرَ، وَإِنَّمَا الَّذِي يُنَافِيهِ الشَّكْوَىٰ إِلَىٰ الْمَخْلُوقِينَ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ اللهَ رَفَعَهُ بِهَذِهِ الْمِحْنَةِ دَرَجَاتٍ عَالِيَةً، وَمَقَامَاتٍ سَامِيَةً لَا تُنَالُ إِلَّا بِمِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ»(١). (*).

وَهَذَا دُعَاءُ أَيُّوبَ عليه السلام لِرَبِّهِ أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُ الضُّرَّ الَّذِي مَسَّهُ، وَأَمَلُهُ وَقُوَّةُ رَجَائِهِ فِي اللهِ، وَاسْتِجَابَةُ اللهِ لَهُ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣- ٨٤].

«وَضَعْ فِي ذَاكِرَتِكَ -أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لِبَيَانِنَا- مَا دَعَا بِهِ أَيُّوبُ رَبَّهُ؛ لِيَرْفَعَ عَنْهُ الضُّرَّ الَّذِي مَسَّهُ، وَطَالَ أَمَدُهُ فِيهِ؛ حَتَّىٰ قَالَ فِي دُعَائِهِ لِرَبِّهِ؛ مُتَوَجِّهًا إِلَيْهِ بِقَلْبِهِ وَنَفْسِهِ: أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ؛ فَاكْشِفْهُ عَنِّي، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

فَأَجَبْنَا دُعَاءَهُ، فَأَزَلْنَا مَا بِهِ مِنْ سُوءِ الْحَالِ فِي جَسَدِهِ، وَرَفَعْنَا عَنْهُ الْبَلَاءَ، وَرَدَدْنَا عَلَيْهِ مَا فَقَدَهُ مِنْ أَهْلِهِ وَأَوْلَادِهِ، وَأَعْطَيْنَاهُ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ.

---

(١) «**تيسير الطيف المنان**»: (ص٢٨٥).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «شَرْحُ تَيْسِيرِ اللَّطِيفِ الْمَنَّانِ فِي خُلَاصَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» (الْمُحَاضَرَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ)، الثُّلَاثَاءُ ٣ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٣٤هـ| ٨-١٠-٢٠١٣م.

فَعَلْنَا بِهِ ذَلِكَ؛ رَحْمَةً عَظِيمَةً مِنْ عِنْدِنَا، وَلِيَكُونَ قُدْوَةً لِكُلِّ صَابِرٍ عَلَىٰ الْبَلَاءِ، رَاجٍ رَحْمَةَ رَبِّهِ، مُنْقَادٍ لَهُ سُبْحَانَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ وَالتَّذَلُّلِ»(١).(*).

وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ ﷻ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ كِتَابِهِ الْحَالَ الَّتِي أَدْرَكَتْ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ حَاصَرَهُمُ الْأَحْزَابُ فِي الْمَدِينَةِ، وَهُمْ عِنْدَ الْخَنْدَقِ الَّذِي حَفَرُوهُ؛ لِلدِّفَاعِ عَنْ وُجُودِهِمْ، وَحِمَايَةِ بَلَدِهِمْ مِنْ تَأَلُّبِ الْأَعْدَاءِ عَلَيْهِمْ، وَبَيَّنَ لَوَامِعَ الْبِشْرِ، وَمَسَالِكَ النَّصْرِ الَّذِي آتَاهُمُ اللهُ ﷻ؛ **قَالَ اللهُ** جَلَّ وَعَلَا: ﴿**إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا**﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

قَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ- فِي تَبْدِيدِ هَذِهِ الْمَخَاوِفِ، وَكَسْرِ عَصَا هَذِهِ الْجُمُوعِ: ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٩].

وَقَالَ -أَيْضًا- فِي هَذَا الشَّأْنِ: ﴿**وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝٢٥ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝٢٦ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٢٥-٢٧].

---

(١) «المعين علىٰ تدبر الكتاب المبين»: (ص٣٢٩).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» -[الأنبياء: ٨٣-٨٤].

فَالزَّلْزَلَةُ وَالِاضْطِرَابُ وَالْخَوْفُ وَبُلُوغُ الرُّعْبِ وَالشِّدَّةِ قُلُوبَ الْعِبَادِ جَائِزٌ عَلَىٰ الْعِبَادِ، أَمَّا الْيَأْسُ وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَمِنْ إِدْرَاكِ عِبَادِهِ بِالْفَرَجِ؛ فَحَرَامٌ غَيْرُ جَائِزٍ؛ لِأَنَّ حَالَ الْعَبْدِ غَيْرُ حَالِ الرَّبِّ جَلَّوَعَلَا؛ فَمَا يَعْجِزُ عَنْهُ الْعِبَادُ لَا يَعْجِزُ عَنْهُ خَالِقُهُمْ، وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْقَادِرُ الْقَدِيرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ.

قَالَ اللهُ جَلَّوَعَلَا: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ**﴾ [يوسف: ١١٠].

وَقَالَ جَلَّوَعَلَا: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ**﴾ [غافر: ٥١].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿**ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [يونس: ١٠٣].(*).

اللهُ جَلَّوَعَلَا **أَخْبَرَ أَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا كَثِيرًا؛ فَلْيَكُنِ الْمُسْلِمُ عَلَى أَمَلٍ دَائِمٍ بِتَفْرِيجِ الْكُرُبَاتِ، قَالَ اللهُ** جَلَّوَعَلَا: ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا**﴾ [الشرح: ١-٦].

«قَدْ فَتَحْنَا لَكَ صَدْرَكَ، وَوَسَّعْنَاهُ لِلْإِيمَانِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْحِكْمَةِ، وَجَعَلْنَاهُ مُنْبَسِطًا رَاضِيًا، وَمُتَحَمِّلًا لِأَعْبَاءِ حَمْلِ الرِّسَالَةِ، وَتَبْلِيغِهَا لِلنَّاسِ، وَمُتَحَمِّلًا أَخْلَاقَهُمْ.

وَحَطَطْنَا عَنْكَ مَا أَثْقَلَ ظَهْرَكَ مِنْ هُمُومٍ كُبْرَىٰ لِإِصْلَاحِ قَوْمِكَ، وَإِنْقَاذِ الْبَشَرِيَّةِ مِنْ خَبَائِثِهَا وَظُلْمِهَا وَفَسَادِهَا.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ خُطْبَةِ: «الْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ» - الْجُمُعَةُ ٢٧ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٦هـ| ١٩-١٢-٢٠١٤م.

فَبَيَّنَ لَكَ وَسَائِلَ التَّبْلِيغِ، وَأَسَالِيبَ التَّرْبِيَةِ وَالْإِصْلَاحِ، فَأَلْقَىٰ عَنْكَ كُلَّ هُمُومِكَ بِمَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ تَعْلِيمَاتٍ وَأَوَامِرَ رَبَّانِيَّةٍ تُوَضِّحُ لَكَ مَنْهَجَ دَعْوَتِكَ.

وَأَعْلَيْنَا لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ ذِكْرَكَ الْحَسَنَ؛ إِذْ جَعَلْتُكَ رَسُولًا، وَاسْتَمَرَّ عَطَائِي لَكَ حَتَّىٰ إِذَا ذُكِرْتُ؛ ذُكِرْتَ مَعِي فِي الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ، وَالتَّشَهُّدِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

فَإِنَّ مَعَ الشِّدَّةِ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا مِنْ جِهَادِ الْمُشْرِكِينَ يُسْرًا وَرَخَاءً عَاجِلًا، فَإِنْ يُظْهِرْكَ اللهُ عَلَيْهِمْ حَتَّىٰ يَنْقَادُوا لِلْحَقِّ الَّذِي جِئْتَهُمْ بِهِ؛ فَذَلِكَ تَيْسِيرٌ مِنْ بَعْدِ التَّعْسِيرِ.

إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا كَثِيرًا كَذَلِكَ؛ فَكُنْ عَلَىٰ أَمَلٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَتَلَقَّ الْأَحْدَاثَ الْحَاضِرَةَ الْمُؤْلِمَةَ بِالرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ، وَبِنَفْسٍ مُنْشَرِحَةٍ مَشْحُونَةٍ بِالْأَمَلِ فِيمَا سَيَأْتِي، صَابِرَةٍ عَلَىٰ الْعُسْرِ الْوَاقِعِ.

فَالنَّفْسُ الْمَشْحُونَةُ بِأَمَلِ الْيُسْرِ الْقَادِمِ يَضْمُرُ لَدَيْهَا أَلَمُ الْعُسْرِ الْقَائِمِ، وَمُنْتَظِرُ الْفَجْرِ الْقَرِيبِ لَا يَشْعُرُ بِظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْقَاتِمِ[(١)]»[(٢)].[(*)]

❊❊❊

(١) «**الْقَاتِم**» أَيْ: الْأَسْوَد.

(٢) «**المعين علىٰ تدبر الكتاب المبين**»: (ص٥٩٦).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [الشرح: ١-٦].

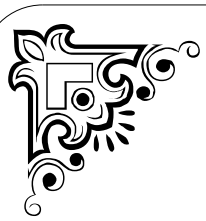

ابْتِلَاءُ اللهِ عِبَادَهُ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ

إِنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا يَبْتَلِي بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَبِالْغِنَىٰ وَالْفَقْرِ، وَبِالصِّحَّةِ وَالْمَرَضِ، وَمَهْمَا كَانَ حَالُ الْعَبْدِ فِي حَالِ ابْتِلَاءٍ، وَهُوَ لَا يَنْفَكُّ عَنْ حَالِ الِابْتِلَاءِ أَبَدًا؛ فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ خَائِفًا مِنَ اللهِ، رَاجِيًا لَهُ، رَاغِبًا رَاهِبًا.

إِنْ نَظَرَ إِلَىٰ ذُنُوبِهِ، وَعَدْلِ اللهِ، وَشِدَّةِ عِقَابِهِ؛ خَشِيَ رَبَّهُ وَخَافَهُ، وَإِنْ نَظَرَ إِلَىٰ فَضْلِهِ الْعَامِّ وَالْخَاصِّ، وَعَفْوِهِ الشَّامِلِ؛ رَجَا وَطَمِعَ.

إِنْ وُفِّقَ لِطَاعَةٍ؛ رَجَا مِنْ رَبِّهِ تَمَامَ النِّعْمَةِ بِقَبُولِهَا، وَخَافَ مِنْ رَدِّهَا بِتَقْصِيرِهِ فِي حَقِّهَا، وَإِنِ ابْتُلِيَ بِمَعْصِيَتِهِ؛ رَجَا مِنْ رَبِّهِ قَبُولَ تَوْبَتِهِ وَمَحْوَهَا، وَخَشِيَ بِسَبَبِ ضَعْفِ التَّوْبَةِ وَالِالْتِفَاتِ لِلذَّنْبِ أَنْ يُعَاقَبَ عَلَيْهَا.

وَعِنْدَ النِّعَمِ وَالْيَسَارِ يَرْجُو اللهَ دَوَامَهَا وَالزِّيَادَةَ مِنْهَا، وَالتَّوْفِيقَ لِشُكْرِهَا، وَيَخْشَىٰ بِإِخْلَالِهِ بِالشُّكْرِ مِنْ سَلْبِهَا.

وَعِنْدَ الْمَكَارِهِ وَالْمَصَائِبِ يَرْجُو اللهَ دَفْعَهَا، وَيَنْتَظِرُ الْفَرَجَ بِحَلِّهَا، وَيَرْجُو -**أَيْضًا**- **أَنْ يُثِيبَهُ اللهُ عَلَيْهَا حِينَ يَقُومُ بِوَظِيفَةِ الصَّبْرِ**، وَيَخْشَىٰ مِنِ اجْتِمَاعِ

الْمُصِيبَتَيْنِ؛ فَوَاتِ الْأَجْرِ الْمَحْبُوبِ، وَحُصُولِ الْأَمْرِ الْمَكْرُوهِ إِذَا لَمْ يُوَفَّقْ لِلْقِيَامِ بِالصَّبْرِ الْوَاجِبِ.(*).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «الْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ» - الْجُمُعَةُ ٢٧ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٦هـ| ١٩-١٢-٢٠١٤م.

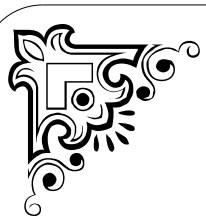

الْعُبُودِيَّةُ الْحَقَّةُ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ

«إِنَّ اللهَ يُرَبِّي عَبْدَهُ عَلَىٰ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالنِّعْمَةِ وَالْبَلَاءِ، فَيَسْتَخْرِجُ مِنْهُ عُبُودِيَّتَهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ.

فَإِنَّ الْعَبْدَ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ مَنْ قَامَ بِعُبُودِيَّةِ اللهِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ، وَأَمَّا عَبْدُ السَّرَّاءِ وَالْعَافِيَةِ الَّذِي يَعْبُدُ اللهَ عَلَىٰ حَرْفٍ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ؛ فَلَيْسَ مِنْ عَبِيدِهِ الَّذِينَ اخْتَارَهُمْ لِعُبُودِيَّتِهِ.

فَلَا رَيْبَ أَنَّ الْإِيمَانَ الَّذِيْ يَثْبُتُ عَلَىٰ مَحَكِّ الِابْتِلَاءِ وَالْعَافِيَةِ هُوَ الْإِيمَانُ النَّافِعُ وَقْتَ الْحَاجَةِ، وَأَمَّا إِيمَانُ الْعَافِيَةِ؛ فَلَا يَكَادُ يَصْحَبُ الْعَبْدَ وَيُبَلِّغُهُ مَنَازِلَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّمَا يَصْحَبُهُ إِيمَانٌ يَثْبُتُ عَلَىٰ الْبَلَاءِ، وَيَثْبُتُ عَلَىٰ الْعَافِيَةِ.

فَالِابْتِلَاءُ كِيرُ الْعَبْدِ، وَمَحَكُّ إِيمَانِهِ؛ فَإِمَّا أَنْ يَخْرُجَ تِبْرًا أَحْمَرَ(١)، وَإِمَّا أَنْ يَخْرُجَ زَغَلًا مَحْضًا(١)، وَإِمَّا أَنْ يَخْرُجَ فِيهِ مَادَّتَانِ: ذَهَبِيَّةٌ، وَنُحَاسِيَّةٌ، فَلَا يَزَالُ بِهِ الْبَلَاءُ حَتَّىٰ يُخْرِجَ الْمَادَّةَ النُّحَاسِيَّةَ مِنْ ذَهَبِهِ، وَيَبْقَىٰ ذَهَبًا خَالِصًا.

---

(١) «**التِّبْرُ الْأَحْمَرُ**» أَيْ: الذَّهَبُ الخَالِصُ مِنَ الشَّوَائِبِ، ومنه ما روي مرفوعا فيمن أصيب بالْحُمَّىٰ وصبر عليها: «...، **يَخْرُجُ مِنْ ذُنُوبِهِ كَمَا يَخْرُجُ التِّبْرُ الأَحْمَرُ مِنَ الكِيرِ**».
=

فَلَوْ عَلِمَ الْعَبْدُ أَنَّ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ فِي الْبَلَاءِ لَيْسَتْ بِدُونِ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِ فِي الْعَافِيَةِ؛ لَشَغَلَ قَلْبَهُ بِشُكْرِهِ، وَلِسَانَهُ بِقَوْلِهِ: «**اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَىٰ ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(٢).

وَكَيْفَ لَا يَشْكُرُ مَنْ قَيَّضَ لَهُ مَا يَسْتَخْرِجُ خَبَثَهُ وَنُحَاسَهُ، وَصَيَّرَهُ تِبْرًا خَالِصًا يَصْلُحُ لِمُجَاوَرَتِهِ وَالنَّظَرِ إِلَيْهِ فِي دَارِهِ؟!!»(٣).(*).

=

انظُرْ: «**لِسَانَ الْعَرَبِ**»: (٤/ ٨٨)، مَادَّةُ: (تبر)، وَ«**مِرْقَاةَ الْمَفَاتِيحِ**»: (٣/ ١١٣٧، رقم ١٥٥٧).

(١) «**زَغَلًا مَحْضًا**» أي: يخرج مزيفا ومغشوشا محضا، وَ(الزَّغَلُ): الْغِشُّ، وَهُوَ زُغَلِيٌّ، بِضَمٍّ ففَتْحٍ، أي: غَشَّاش.

انظُرْ: «**تَاجَ الْعَرُوسِ**»: (٢٩/ ١٢٦ - ١٢٧)، مَادَّةُ: (زَغَلَ)، و«**تَكْمِلَةَ الْمَعَاجِمِ الْعَرَبِيَّةِ**»: (٥/ ٣٣٣).

(٢) أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ فِي «**السُّنَنِ**»: كتاب الصلاة: باب في الاستغفار، (١٥٢٢)، وَالنَّسَائِيُّ فِي «**الْمُجْتَبَىٰ**»: كتاب السهو: باب الدعاء بعد الذكر، (٣/ ٥٣، رقم١٣٠٣)، مِنْ حَدِيثِ: مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه:

أَنَّ رَسُولَ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ: لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَىٰ ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**».

وَالْحَدِيث صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «**صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ**»: (٥/ ٢٥٣ - ٢٥٤، رقم ١٣٦٢).

(٣) «**طَرِيقُ الْهِجْرَتَيْنِ وَبَابُ السَّعَادَتَيْنِ**»: (٢/ ٦٠٤)، بِتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ وَاخْتِصَارٍ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «الصَّبْرُ عِنْدَ الْبَلَاءِ» - الْجُمُعَةُ ٣ مِنْ رَجَبٍ ١٤٣٥هـ| ٢-٥-٢٠١٤م.

«فَكَمَا عَلَىٰ الْعَبْدِ عُبُودِيَّةٌ لِرَبِّهِ فِي حَالِ رَخَائِهِ؛ فَعَلَيْهِ عُبُودِيَّةٌ فِي حَالِ الشِّدَّةِ(١)»(٢).(*).

ഌ❃❃❃ഋ

(١) أخرج الترمذي في «**الجامع**»: كتاب صفة القيامة: باب٥٩، (٢٥١٦)، وأَحْمَدُ فِي «**الْمُسْنَدِ**»: (١/ ٣٠٧، رقم٢٨٠٣) واللفظ له، من حديث: ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**يَا غُلامُ، أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِنَّ؟**» فَقُلْتُ: بَلَىٰ. فَقَالَ: «**احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وإذا سألت فاسأل الله،...**» الحديث.

قَالَ التِّرْمِذِيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وَكَذَا صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي هَامِشِ «**مِشْكَاةِ الْمَصَابِيحِ**» (٣/ ١٤٥٣، رقم ٥٣٠٢).

(٢) «**تيسير اللطيف المنان**»: (ص٢٨٠).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «شَرْحُ تَيْسِيرِ اللَّطِيفِ الْمَنَّانِ فِي خُلَاصَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» (الْمُحَاضَرَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ)، الثُّلَاثَاءُ ٣ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٣٤هـ| ٨-١٠-٢٠١٣م.

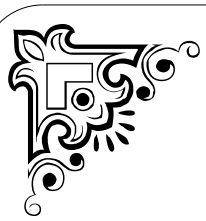

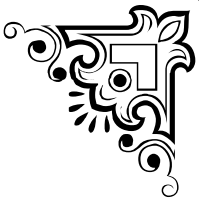

الْفَرَجُ مَعَ اشْتِدَادِ الْكَرْبِ

«إِنَّ الْفَرَجَ مَعَ اشْتِدَادِ الْكَرْبِ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا تَرَاكَمَتِ الشَّدَائِدُ الْمُتَنَوِّعَةُ، وَضَاقَ الْعَبْدُ ذَرْعًا بِحَمْلِهَا؛ فَرَّجَهَا فَارِجُ الْهَمِّ، كَاشِفُ الْغَمِّ، مُجِيبُ دَعْوَةِ الْمُضْطَرِّينَ، وَهَذِهِ عَوَائِدُهُ الْجَمِيلَةُ؛ خُصُوصًا لِأَوْلِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ؛ لِيَكُونَ لِذَلِكَ الْوَقْعُ الْأَكْبَرُ، وَالْمَحَلُّ الْأَعْظَمُ، وَلِيَجْعَلَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِاللهِ وَالْمَحَبَّةِ لَهُ مَا يُوَازِنُ وَيَرْجَحُ بِمَا جَرَىٰ عَلَىٰ الْعَبْدِ بِلَا نِسْبَةٍ»(١).(*).

«فَسُبْحَانَ مَنْ يُنْعِمُ بِبَلَائِهِ، وَيَلْطُفُ بِأَصْفِيَائِهِ، وَهَذَا عُنْوَانُ الْإِيمَانِ، وَعَلَامَةُ السَّعَادَةِ»(٣).(*/٢).

---

(١) «**تيسير اللطيف المنان**»: (ص٢٨٥).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «شَرْحُ تَيْسِيرِ اللَّطِيفِ الْمَنَّانِ فِي خُلَاصَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» (الْمُحَاضَرَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ)، الثُّلَاثَاءُ ٣ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٣٤هـ| ٨-١٠-٢٠١٣م.

(٣) «**تيسير اللطيف المنان**»: (ص٢٨٠).

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «شَرْحُ تَيْسِيرِ اللَّطِيفِ الْمَنَّانِ فِي خُلَاصَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» (الْمُحَاضَرَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ)، الثُّلَاثَاءُ ٣ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٣٤هـ| ٨-١٠-٢٠١٣م.

أَسْأَلُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ أَنْ يَرْحَمَنَا، وَأَنْ يَعْفُوَ عَنَّا، وَأَنْ يَرْفَعَ عَنْ أُمَّتِنَا مَا نَزَلَ بِهَا مِنَ الْبَلَاءِ وَالْمِحْنَةِ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصحَابِهِ أَجمَعِينَ.(*).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «فَوَائِدُ الِابْتِلَاءِ» - الْأَحَدُ ٢٧ مِنْ رَجَبٍ ١٤٤١هـ| ٢٢-٣-٢٠٢٠م.

الدَّرْسُ الْخَامِسُ:

أَذْكَارٌ وَأَدْعِيَةٌ عَظِيمَةٌ وَقْتَ الْمِحَنِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ قَاعِدَةَ الْحَيَاةِ الَّتِي بُنِيَتْ عَلَيْهَا الْحَيَاةُ: أَنَّهَا دَارُ مِحْنَةٍ وَابْتِلَاءٍ، لَا دَارُ سَعَادَةٍ وَرَخَاءٍ.

وَاللهُ خَلَقَ الْخَلْقَ لِكَيْ يَمْتَحِنَهُمْ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].(*).

«وَلَنُعَامِلَنَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- مُعَامَلَةَ الْمُخْتَبِرِ لَكُمْ، وَنَأْمُرَكُمْ بِالْجِهَادِ؛ حَتَّىٰ يَتَمَيَّزَ الْمُجَاهِدُونَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ بِحَسَبِ دَرَجَاتِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ مِنْ غَيْرِ الْمُجَاهِدِينَ، وَيَتَبَيَّنَ الصَّابِرُونَ عَلَىٰ اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ مِنْ غَيْرِ الصَّابِرِينَ ذَوِي الْهَلَعِ وَالْجَزَعِ.

وَنُظْهِرَ أَخْبَارَكُمْ وَنَكْشِفَهَا؛ لِيَتَبَيَّنَ مَنْ يَأْبَىٰ الْقِتَالَ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَىٰ الْجِهَادِ»(٢).(*/٢).

وَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ امْتِحَانًا وَاخْتِبَارًا؛ فَقَدْ وَجَبَ الْحَذَرُ، وَتَأَكَّدَتِ الْحَيْطَةُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ عَائِشًا بِهَذِهِ النَّفْسِيَّةِ.. نَفْسِيَّةِ الْمُحِسِّ الْمُدْرِكِ الْمُتَيَقِّنِ بِأَنَّهُ مُبْتَلًىٰ بِكُلِّ حَالَةٍ مِنْ حَالَاتِهِ فِي الْحَيَاةِ، فَإِذَا أُصِيبَ بِالسَّرَّاءِ؛ فَهُوَ فِي حَالَةِ ابْتِلَاءٍ بِالسَّرَّاءِ، وَإِذَا أُصِيبَ بِالضَّرَّاءِ؛ فَهُوَ فِي حَالَةِ ابْتِلَاءٍ بِالضَّرَّاءِ، وَكَذَلِكَ إِذَا مَا وَاقَعَ الْمَعْصِيَةَ؛ فَهُوَ فِي حَالَةِ ابْتِلَاءٍ بِالْمَعَاصِي وَالسَّيِّئَاتِ، وَإِذَا وَفَّقَهُ اللهُ إِلَىٰ الطَّاعَةِ؛ فَهُوَ فِي حَالَةِ ابْتِلَاءٍ بِالطَّاعَاتِ وَالْحَسَنَاتِ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «الدُّنْيَا دَارُ ابْتِلَاءٍ».

(٢) «**معالم التنزيل**»: (٧/ ٢٨٩)، بتصرف يسير.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «التَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [محمد: ٣١].

الْإِنْسَانُ فِي حَالَةِ ابْتِلَاءٍ دَائِمًا، لَا يَخْلُو الْإِنْسَانُ مِنْ حَالَةِ الِابْتِلَاءِ إِلَّا إِذَا تَوَفَّاهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.(*).

لَقَدْ تَمَسَّكَ الْأَنْبِيَاءُ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فِي أَصْعَبِ الْمِحَنِ بِأَدْعِيَةٍ عَظِيمَةٍ، وَأَذْكَارٍ جَلِيلَةٍ..

لَقَدْ أَثْنَىٰ اللهُ جَلَّ وَعَلَا **عَلَىٰ صَحَابَةِ رَسُولِهِ** ﷺ: ﴿**ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ [آل عمران: ١٧٢].

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا للهِ وَالرَّسُولِ هُمُ الَّذِينَ خَاضُوا غِمَارَ(٢) غَزْوَةِ أُحُدٍ، وَسَقَطَ مِنْهُمْ مَنْ سَقَطَ شَهِيدًا، وَجُرِحَ مَنْ جُرِحَ، وَأَصَابَهُمُ الرَّهَقُ وَالتَّعَبُ؛ فَدَعَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَهُمْ عَلَىٰ تِلْكَ الْحَالِ الَّتِي أَصَابَهُمْ فِيهَا الْقَرْحُ إِلَىٰ الْخُرُوجِ فِي إِثْرِ الْمُشْرِكِينَ؛ فَقَدْ خَشِيَ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يَنْطَلِقَ الْمُشْرِكُونَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، أَوْ يُفَكِّرُوا فِي الْعَوْدَةِ إِلَيْهَا وَهُمْ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَىٰ مَكَّةَ.

وَقَدِ انْتَدَبَ الرَّسُولُ ﷺ طَائِفَةً مِنْ أَصْحَابِهِ لِلْخُرُوجِ فِي إِثْرِ الْمُشْرِكِينَ، فَخَرَجَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ؛ مِنْهُمْ: أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ؛ فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ**

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الدُّنْيَا دَارُ ابْتِلَاءٍ» (الْمُحَاضَرَةُ الْخَامِسَةُ: كَيْفَ يَتَعَامَلُ الْمُسْلِمُ مَعَ الِابْتِلَاءِ؟ ١» - الْأَحَدُ ٦ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٢٦هـ| ٩-١٠-٢٠٠٥م.

(٢) «**غِمَار**»، أي: شَدَائِد.

انظر: «**لسان العرب**»: (٥/ ٢٩، مادة: غمر).

﴿الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.. قَالَتْ لِعُرْوَةَ: «يَا ابْنَ أُخْتِي! كَانَ أَبَوَاكَ مِنْهُمُ الزُّبَيْرُ وَأَبُو بَكْرٍ، لَمَّا أَصَابَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَا أَصَابَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَانْصَرَفَ عَنْهُ الْمُشْرِكُونَ؛ خَافَ أَنْ يَرْجِعُوا، قَالَ: «**مَنْ يَذْهَبُ فِي إِثْرِهِمْ؟**»، فَانْتَدَبَ مِنْهُمْ سَبْعِينَ رَجُلًا، قَالَ: كَانَ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ، وَالزُّبَيْرُ». وَالْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ مُخْتَصَرًا(١).

فِي الْيَوْمِ التَّالِي أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ الْجَيْشَ كُلَّهُ أَنْ يَخْرُجَ فِي إِثْرِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَمْ يَأْذَنْ لِأَحَدٍ أَنْ يَخْرُجَ مَعَهُ إِلَّا الَّذِينَ حَضَرُوا الْقِتَالَ فِي أُحُدٍ؛ بِاسْتِثْنَاءِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، وَسَارَ الرَّسُولُ ﷺ بِأَصْحَابِهِ حَتَّىٰ (بَلَغَ حَمْرَاءَ الْأَسَدِ) عَلَىٰ بُعْدِ ثَمَانِي مَرَاحِلَ مِنَ الْمَدِينَةِ.

وَقَدْ حَدَثَ مَا تَوَقَّعَهُ الرَّسُولُ ﷺ؛ فَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ تَلَاوَمُوا فِي عَدَمِ اسْتِئْصَالِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ هَزِيمَتِهِمْ لَهُمْ، وَتَشَاوَرُوا فِي الرُّجُوعِ إِلَيْهِمْ وَالْقَضَاءِ عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا عَلِمُوا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ خَرَجُوا فِي إِثْرِهِمْ، وَأَنَّهُمْ صَارُوا قَرِيبًا مِنْهُمْ؛ فَتَّ ذَلِكَ فِي عَضُدِهِمْ، وَخَافُوا أَنْ يَتَحَوَّلَ نَصْرُهُمْ إِلَىٰ هَزِيمَةٍ، فَأَسْرَعُوا عَائِدِينَ إِلَىٰ مَكَّةَ.

الْقَرْحُ الَّذِي أَصَابَ الْمُؤْمِنِينَ: الْجِرَاحَةُ وَالتَّعَبُ اللَّذَانِ كَانَا لِلْمُجَاهِدِينَ بَعْدَ الْمَعْرَكَةِ.

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصحيح**»: (٧/ ٣٧٣، رقم ٤٠٧٧)، وَمُسْلِمٌ فِي «**الصحيح**»: (٤/ ١٨٨١، رقم ٢٤١٨)، مُخْتَصَرًا.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: أَحْسَنُوا بِصَبْرِهِمْ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ، وَاسْتَجَابُوا لِمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ؛ مِنَ الْخُرُوجِ مَعَ مَا بِهِمْ مِنْ تَعَبٍ وَآلَامٍ وَجُرْحٍ، وَقَدْ وَعَدَهُمُ اللهُ -تَعَالَىٰ- عَلَىٰ ذَلِكَ بِالْأَجْرِ الْعَظِيمِ.

عِنْدَمَا عَلِمَ أَبُو سُفْيَانَ بِخُرُوجِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ فِي إِثْرِهِمْ؛ هَزَّهُ الْخَبَرُ، وَخَشِيَ مِنَ الرُّجُوعِ إِلَيْهِمْ، وَلَعَلَّهُ خَشِيَ أَنْ يَتَحَوَّلَ نَصْرُهُ إِلَىٰ هَزِيمَةٍ، فَسَارَ رَاجِعًا إِلَىٰ مَكَّةَ، وَاسْتَعْمَلَ مَا يُسَمَّىٰ بِالْحَرْبِ النَّفْسِيَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ؛ فَقَدْ حَمَّلَ قَوْمًا مِنَ التُّجَّارِ كَانُوا مُنْطَلِقِينَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ لِلتِّجَارَةِ أَنْ يَقُولُوا لِلرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ مُقَابِلَ جُعْلٍ جَعَلَهُ لَهُمْ: إِنَّنَا رَاجِعُونَ إِلَيْهِمْ لِنَسْتَأْصِلَهُمْ.

فَلَمَّا أَخْبَرُوا الرَّسُولَ ﷺ وَأَصْحَابَهُ بِذَلِكَ؛ ازْدَادَ الْمُؤْمِنُونَ إِيمَانًا؛ لِتَوَكُّلِهِمْ وَاعْتِمَادِهِمْ عَلَىٰ اللهِ -تَعَالَىٰ- وَحْدَهُ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿**إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ**﴾»[1].

وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَىٰ مَدَىٰ ثَبَاتِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، وَاعْتِمَادِهِمْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصحيح**»: (٨/ ٢٢٩، رقم ٤٥٦٣ و٤٥٦٤).

وَمَعْنَىٰ: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾؛ أَيِ: اللهُ كَافِينَا، وَاللهُ نِعْمَ الْوَكِيلُ الَّذِي يُتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، وَيُعْتَمَدُ عَلَيْهِ.

أَخْبَرَنَا رَبُّنَا جَلَّوَعَلَا أَنَّ خُرُوجَ الْمُؤْمِنِينَ فِي إِثْرِ عَدُوِّهِمْ بَعْدَ (أُحُدٍ) كَانَ سَفَرَ خَيْرٍ وَبَرَكَةٍ؛ فَقَدْ أَلْقَىٰ خُرُوجُهُمُ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِهِمْ، وَانْقَلَبَ الْمُؤْمِنُونَ عَائِدِينَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ سَالِمِينَ غَانِمِينَ، لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مُتَّبِعُونَ مَا يُرْضِي اللهَ جَلَّوَعَلَا فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ، ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾، وَمِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَأَصْحَابِهِ: صَرْفُ الْكُفَّارِ عَنْهُمْ، وَإِعَادَتُهُمْ سَالِمِينَ، وَوَرَدَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّهُمْ تَاجَرُوا وَرَبِحُوا.

﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ(١): «﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: فَانْصَرَفَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ عَنْ وَجْهِهِمُ الَّذِي تَوَجَّهُوا فِيهِ -وَهُوَ سَيْرُهُمْ فِي إِثْرِ عَدُوِّهِمْ- إِلَىٰ حَمْرَاءِ الْأَسَدِ ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ يَعْنِي: بِعَافِيَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ، لَمْ يَلْقَوْا بِهَا عَدُوًّا، ﴿وَفَضْلٍ﴾؛ يَعْنِي: أَصَابُوا فِيهَا مِنَ الْأَرْبَاحِ بِتِجَارَتِهِمُ الَّتِي اتَّجَرُوا بِهَا، وَالْأَجْرُ الَّذِي اكْتَسَبُوهُ، ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾؛ يَعْنِي: لَمْ يَنَلْهُمْ بِهَا مَكْرُوهٌ مِنْ عَدُوِّهِمْ وَلَا أَذًىٰ.

---

(١) «**جامع البيان**»: سورة آل عمران: الآية ١٧٤، (٤/ ١٨٢).

﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ﴾؛ يَعْنِي بِذَلِكَ: أَنَّهُمْ أَرْضَوُا اللهَ بِفِعْلِهِمْ ذَلِكَ، وَاتِّبَاعِهِمْ رَسُولَهُ إِلَىٰ مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مِنِ اتِّبَاعِ أَثَرِ الْعَدُوِّ، وَطَاعَتِهِمْ.

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾؛ يَعْنِي: وَاللهُ ذُو إِحْسَانٍ وَطَوْلٍ عَلَيْهِمْ -بِصَرْفِ عَدُوِّهِمُ الَّذِي كَانُوا قَدْ هَمُّوا بِالْكَرَّةِ إِلَيْهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَيَادِيهِ عِنْدَهُمْ وَعَلَىٰ غَيْرِهِمْ- بِنِعَمِهِ ﴿عَظِيمٍ﴾ عِنْدَ مَنْ أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ».

وَأَخْبَرَنَا رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّ تِلْكُمُ الْمَقَالَةَ الَّتِي حَمَّلَهَا أَبُو سُفْيَانَ لِأُولَئِكَ النَّفَرِ مِنَ التُّجَّارِ مُرْسِلًا بِهَا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ؛ لِيُرْعِبَهُمْ وَيُخَوِّفَهُمْ؛ هِيَ مِنَ الشَّيْطَانِ، يُخَوِّفُ بِهَا الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْكَافِرِينَ.

وَقَدْ نَهَىٰ اللهُ -تَعَالَىٰ- فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَخَافُوا الْمُشْرِكِينَ، وَطَالَبَهُمْ بِأَنْ يَخَافُوهُ وَحْدَهُ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَهُ؛ تَكَفَّلَ لَهُمْ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ، ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.(*).

فَهَذَا ذِكْرٌ عَظِيمٌ قَالَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ رضي الله عنهم فِي شِدَّةٍ مِنْ أَعْظَمِ الشَّدَائِدِ: «حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» قَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾.(*/٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: «تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ» (سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ) الْمُحَاضَرَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ، الْأَحَدُ ٩ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٨هـ| ٤-٦-٢٠١٧م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: «تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ» (سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ) الْمُحَاضَرَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ)، الْأَحَدُ ٩ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٨هـ| ٤-٦-٢٠١٧م.

وَكَذَلِكَ الْخَلِيلُ عليه السلام قَالَ هَذَا الذِّكْرَ فِي مِحْنَةِ الْمِحَنِ، وَشِدَّةِ الشَّدَائِدِ؛ «فَلَمْ يَزَلْ إِبْرَاهِيمُ مَعَ قَوْمِهِ فِي دَعْوَةٍ وَجِدَالٍ، وَقَدْ أَفْحَمَهُمْ(١)، وَكَسَرَ جَمِيعَ حُجَجِهِمْ وَشُبَهِهِمْ، فَأَرَادَ ﷺ أَنْ يُقَاوِمَهُمْ بِأَعْظَمِ الْحُجَجِ، وَأَنْ يَصْمُدَ لِبَطْشِهِمْ وَجَبَرُوتِهِمْ وَقُدْرَتِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ، غَيْرَ هَائِبٍ وَلَا وَجِلٍ.

فَلَمَّا خَرَجُوا ذَاتَ يَوْمٍ لِعِيدٍ مِنْ أَعْيَادِهِمْ، وَخَرَجَ مَعَهُمْ، ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾؛ لِأَنَّهُ خَشِيَ إِنْ تَخَلَّفَ لِغَيْرِ هَذِهِ الْوَسِيلَةِ لَمْ يُدْرِكْ مَطْلُوبَهُ؛ لِأَنَّهُ تَظَاهَرَ بِعَدَاوَةِ الْأَصْنَامِ، وَالنَّهْيِ الْأَكِيدِ عَنْهَا، وَجِهَادِ أَهْلِهَا، فَلَمَّا بَرَزُوا جَمِيعًا إِلَىٰ الصَّحْرَاءِ؛ كَرَّ رَاجِعًا إِلَىٰ بَيْتِ أَصْنَامِهِمْ، فَجَعَلَهَا جُذَاذًا كُلَّهَا إِلَّا صَنَمًا كَبِيرًا أَبْقَىٰ عَلَيْهِ؛ لِيُلْزِمَهُمْ بِالْحُجَّةِ.

فَلَمَّا رَجَعُوا مِنْ عِيدِهِمْ؛ بَادَرُوا إِلَىٰ أَصْنَامِهِمْ صَبَابَةً وَمَحَبَّةً، فَرَأَوْا فِيهَا أَفْظَعَ مَنْظَرٍ رَآهُ أَهْلُهَا، فَقَالُوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٩-٦٠]؛ **أَيْ:** يَعِيبُهَا وَيَذْكُرُهَا بِأَوْصَافِ النَّقْصِ وَالسُّوءِ: ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠].

فَلَمَّا تَحَقَّقُوا أَنَّهُ الَّذِي كَسَرَهَا: ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١]؛ **أَيْ:** بِحَضْرَةِ الْخَلْقِ الْعَظِيمِ، وَوَبَّخُوهُ أَشَدَّ التَّوْبِيخِ، ثُمَّ نَكَّلُوا بِهِ، وَهَذَا الَّذِي أَرَادَ إِبْرَاهِيمُ؛ لِيَظْهَرَ الْحَقُّ بِمَرْأَىٰ الْخَلْقِ وَبِمَسْمَعِهِمْ، فَلَمَّا جُمِعَ النَّاسُ وَحَضَرُوا، وَحَضَّرُوا إِبْرَاهِيمَ؛ قَالُوا: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا

(١) «**أَفْحَمَهُم**»، أي: أَسْكَتَهُم.

يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا ﴾ [الأنبياء: ٦٢-٦٣]، مُشِيرًا إِلَىٰ الصَّنَمِ الَّذِي سَلِمَ مِنْ تَكْسِيرِهِ، وَهُمْ فِي هَذِهِ بَيْنَ أَمْرَيْنِ:

إِمَّا أَنْ يَعْتَرِفُوا بِالْحَقِّ، وَأَنَّ هَذَا لَا يَدْخُلُ عَقْلَ أَحَدٍ؛ أَنَّ جَمَادًا مَعْرُوفًا أَنَّهُ مَصْنُوعٌ مِنْ مَوَادَّ مَعْرُوفَةٍ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَفْعَلَ هَذَا الْفِعْلَ، وَإِمَّا أَنْ يَقُولُوا: نَعَمْ، هُوَ الَّذِي فَعَلَهَا، وَأَنْتَ سَالِمٌ نَاجٍ مِنْ تَبِعَتِهَا، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ الِاحْتِمَالَ الْأَخِيرَ.

قَالَ: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وَهَذَا تَعْلِيقٌ بِالْأَمْرِ الَّذِي يَعْتَرِفُونَ أَنَّهُ مُحَالٌ؛ فَحِينَئِذٍ ظَهَرَ الْحَقُّ وَبَانَ، وَاعْتَرَفُوا هُمْ بِالْحَقِّ: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ ﴾ [الأنبياء: ٦٤-٦٥]، أَيْ: مَا كَانَ اعْتِرَافُهُمْ بِبُطْلَانِ إِلَهِيَّتِهَا إِلَّا وَقْتًا قَصِيرًا، ظَهَرَتِ الْحُجَّةُ مُبَاشَرَةً الَّتِي لَا يُمْكِنُ مُكَابَرَتُهَا؛ وَلَكِنْ مَا أَسْرَعَ مَا عَادَتْ عَقَائِدُهُمُ الْبَاطِلَةُ الَّتِي رَسَخَتْ فِي قُلُوبِهِمْ، وَصَارَتْ صِفَاتٍ مُلَازِمَةً لَهُمْ، إِنْ وُجِدَ مَا يُنَافِيهَا؛ فَإِنَّهُ عَارِضٌ يَعْرِضُ ثُمَّ يَزُولُ: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٥].

فَحِينَئِذٍ وَبَّخَهُمْ بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ الَّتِي اعْتَرَفَ بِهَا الْخُصُومُ عَلَىٰ رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧].

فَلَوْ كَانَ لَكُمْ عُقُولٌ صَحِيحَةٌ؛ لِمَ تُقِيمُونَ عَلَىٰ عِبَادَةِ مَا لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ، وَلَا يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ مَنْ يُرِيدُهُ بِسُوءٍ؟!!

فَلَمَّا أَعْيَتْهُمُ الْمُقَاوَمَةُ بِالْبَرَاهِينِ وَالْحُجَجِ؛ عَدَلُوا إِلَىٰ اسْتِعْمَالِ قُوَّتِهِمْ وَبَطْشِهِمْ وَجَبَرُوتِهِمْ فِي عُقُوبَةِ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالُوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾، فَأَوْقَدُوا نَارًا عَظِيمَةً جِدًّا، فَأَلْقَوْهُ بِهَا، فَقَالَ -وَهُوَ فِي تِلْكَ الْحَالِ-: «**حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**»، فَقَالَ اللهُ لِلنَّارِ: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

فَلَمْ تَضُرَّهُ بِشَيْءٍ، وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا لِيَنْصُرُوا آلِهَتَهُمْ، وَيُقِيمُوا لَهَا فِي قُلُوبِهِمْ وَقُلُوبِ أَتْبَاعِهِمُ الْخُضُوعَ وَالتَّعْظِيمَ، فَكَانَ مَكْرُهُمْ وَبَالًا عَلَيْهِمْ، وَكَانَ انْتِصَارُهُمْ لِآلِهَتِهِمْ نَصْرًا عَظِيمًا عِنْدَ الْحَاضِرِينَ، وَالْغَائِبِينَ الْمَوْجُودِينَ، وَالْحَادِثِينَ عَلَيْهِمْ، وَانْتَصَرَ الْخَلِيلُ عَلَىٰ الْخَوَاصِّ وَالْعَوَامِّ وَالرُّؤَسَاءِ وَالْمَرْؤُوسِينَ»(١). (*).

وَهَذَا «يُونُسُ عليه السلام مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْعِظَامِ، بَعَثَهُ اللهُ إِلَىٰ أَهْلِ نِينَوَىٰ -مِنْ أَرْضِ الْمَوْصِلِ-، فَدَعَاهُمْ إِلَىٰ اللهِ -تَعَالَىٰ-، فَأَبَوْا عَلَيْهِ.

ثُمَّ كَرَّرَ عَلَيْهِمُ الدَّعْوَةَ، فَأَبَوْا، فَوَعَدَهُمُ الْعَذَابَ، وَخَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، وَلَمْ يَصْبِرِ الصَّبْرَ الَّذِي يَنْبَغِي، وَلَكِنَّهُ أَبَقَ مُغَاضِبًا لَهُمْ.

وَهُمْ لَمَّا ذَهَبَ نَبِيُّهُمْ؛ أُلْقِيَتْ فِي قُلُوبِهِمُ التَّوْبَةُ إِلَىٰ اللهِ وَالْإِنَابَةُ بَعْدَمَا شَاهَدُوا مُقَدِّمَاتِ الْعَذَابِ، فَكَشَفَ اللهُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ.

---

(١) «**تيسير اللطيف المنان**»: (ص ٢٠١- ٢٠٤).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «سِيرَةُ الْخَلِيلِ ﷺ» - الْجُمُعَةُ ٢٠ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٦هـ| ٤-٩-٢٠١٥م.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ يُونُسَ عَلِمَ انْكِشَافَ الْعَذَابِ عَنْهُمْ، وَاسْتَمَرَّ فِي ذَهَابِهِ عَنْهُمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الصافات: ١٤٠].

فَرَكِبَ فِي سَفِينَةٍ مُوَقَّرَةٍ مِنَ الرُّكَّابِ وَالْأَحْمَالِ، فَلَمَّا تَوَسَّطُوا الْبَحْرَ؛ شَارَفَتْ عَلَىٰ الْغَرَقِ.

وَدَارَ الْأَمْرُ بَيْنَ أَنْ يَبْقَوْا جَمِيعًا فِيهَا فَيَهْلِكُوا، وَبَيْنَ أَنْ يُلْقُوا بَعْضَهُمْ بِمِقْدَارِ مَا تَخِفُّ السَّفِينَةُ فَيَسْلَمَ الْبَاقُونَ، فَاخْتَارُوا الْأَخِيرَ؛ لِعَدْلِهِمْ وَتَوْفِيقِهِمْ.

فَاقْتَرَعُوا، فَأَصَابَتِ الْقُرْعَةُ أُنَاسًا مِنْهُمْ، وَمِنْهُمْ: يُونُسُ ﷺ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١]؛ أَيْ: الْمَغْلُوبِينَ فِي الْقُرْعَةِ.

فَأُلْقُوا، فَابْتَلَعَهُ حُوتٌ فِي الْبَحْرِ ابْتِلَاعًا، لَمْ يَكْسِرْ لَهُ عَظْمًا، وَلَمْ يَمْضُغْ لَهُ لَحْمًا.

فَلَمَّا صَارَ فِي جَوْفِ الْحُوتِ فِي تِلْكَ الظُّلُمَاتِ؛ نَادَىٰ: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

-فَكَانَ فِي ظُلْمَةِ جَوْفِ الْحُوتِ، فِي ظُلْمَةِ الْبَحْرِ، فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ-.

فَأَمَرَ اللهُ الْحُوتَ أَنْ تُلْقِيَهُ بِالْعَرَاءِ، فَخَرَجَ مِنْ بَطْنِهَا كَالْفَرْخِ الْمَمْعُوطِ(١) مِنَ الْبَيْضَةِ فِي غَايَةِ الضَّعْفِ وَالْهُونِ، فَلَطَفَ اللهُ بِهِ، وَأَنْبَتَ عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ، فَأَظَلَّتْهُ بِظِلِّهَا الظَّلِيلِ حَتَّىٰ قَوِيَ وَاشْتَدَّ.

---

(١) «الْمَمْعُوطِ»: منتوف الريش.

وَأَمَرَهُ اللهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ قَوْمِهِ فَيُعَلِّمَهُمْ وَيَدْعُوَهُمْ، فَاسْتَجَابَ لَهُ أَهْلُ بَلَدِهِ؛ مِئَةُ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ، فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**دَعْوَةُ أَخِي ذِي النُّونِ مَا دَعَا بِهَا مَكْرُوبٌ إِلَّا فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ»**»(١).

الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ»(٢).(*).

قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ **وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَـٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَـٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۡٔجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ** ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

وَضَعْ فِي ذَاكِرَتِكَ -أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لِكَلَامِ رَبِّكَ- قِصَّةَ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ عليه السلام صَاحِبِ الْحُوتِ، حِينَ انْصَرَفَ عَنْ قَوْمِهِ مُغَاضِبًا لَهُ؛ مِنْ أَجْلِ دِينِ رَبِّهِ، ضَائِقًا صَدْرُهُ بِعِصْيَانِهِمْ، دُونَ أَنْ نَأْمُرَهُ بِفِرَاقِهِمْ.

---

(١) أخرجه الترمذي في «**الجامع**»: (٥/ ٥٢٩، رقم ٣٥٠٥)، من حديث: سَعْدِ بن أبي وقاص رضي الله عنه.

والحديث صححه الألباني في «**صحيح الترغيب والترهيب**»: (٢/ ٢٨٢ و٣٦٣، رقم ١٦٤٤ و١٨٢٦).

(٢) «**تيسير اللطيف المنان**»: (ص ٢٣٧-٢٣٩).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: «شَرْحُ تَيْسِيرِ اللَّطِيفِ الْمَنَّانِ فِي خُلَاصَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - الْمُحَاضَرَة ١٦ - الِاثْنَيْنِ ٢ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٣٤هـ| ٧-١٠-٢٠١٣م.

وَظَنَّ بِاجْتِهَادٍ مِنْهُ أَنْ لَنْ نُضَيِّقَ عَلَيْهِ؛ عِقَابًا لَهُ عَلَىٰ تَرْكِ قَوْمِهِ مِنْ غَيْرِ أَمْرِنَا، فَابْتَلَاهُ اللهُ بِشِدَّةِ الضِّيقِ وَالْحَبْسِ، وَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ فِي الْبَحْرِ.

فَنَادَىٰ رَبَّهُ فِي الظُّلُمَاتِ -ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَظُلْمَةِ الْبَحْرِ، وَظُلْمَةِ جَوْفِ فَمِ الْحُوتِ-، تَائِبًا مُعْتَرِفًا بِذَنْبِهِ بِتَرْكِهِ الصَّبْرَ عَلَىٰ قَوْمِهِ، قَائِلًا: لَا إِلَهَ مَعْبُودٌ بِحَقٍّ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ إِلَّا أَنْتَ، تَنَزَّهْتَ عَنْ كُلِّ شَرِيكٍ، وَعَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِرُبُوبِيَّتِكَ وَإِلَاهِيَّتِكَ.

أُؤَكِّدُ اعْتِرَافِي بِذَنْبِي؛ إِذْ ذَهَبْتُ مُغَاضِبًا قَوْمِي الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِي قَبْلَ أَنْ تَأْذَنَ لِي بِانْصِرَافِي عَنْهُمْ.

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ دُعَاءَهُ، وَخَلَّصْنَاهُ مِنْ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَقَدَّرْنَا أَنْ يَلْفِظَهُ الْحُوتُ عَلَىٰ الْيَابِسَةِ قَرِيبًا مِنْ شَاطِئِ الْبَحْرِ، فَفَعَلَ.

وَمِثْلُ هَذَا التَّخْلِيصِ مِنَ الْغَمِّ نُخَلِّصُ سَائِرَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ كَامِلِي الْإِيمَانِ مِنَ الْكُرُوبِ، ضِمْنَ سُنَّتِنَا فِي تَصَارِيفِنَا بِعِبَادِنَا إِذَا دَعَوْنَا وَاسْتَغَاثُوا بِنَا.(*).

عِبَادَ اللهِ! هَذِهِ الدَّعْوَةُ الْمُبَارَكَةُ الَّتِي دَعَا بِهَا يُونُسُ عليه السلام وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ؛ فَرَّجَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنْهُ بِهَا.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [الأنبياء: ٨٧-٨٨]».

وَكَذَلِكَ يُفَرِّجُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنِ الْمُؤْمِنِينَ؛ حَتَّى إِنَّ الْإِنْسَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ عِنْدَ الْكَرْبِ الْتِفَاتًا خَاصًّا، فَإِنَّهُ إِذَا دَعَا بِهَا، ثُمَّ لَمْ يُفَرَّجْ عَنْهُ، وَلَمْ يُنَجِّهِ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يَقِفَ طَوِيلًا مَعَ إِيمَانِهِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَعَلَ نَجَاةَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا أَخَذُوا بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ الصَّالِحَةِ الْمُبَارَكَةِ؛ جَعَلَ هَذِهِ النَّجَاةَ كَنَجَاةِ يُونُسَ عليه السلام لَمَّا دَعَا بِهَا وَهُوَ فِي بَاطِنِ الْحُوتِ.(*).

فَتَأَمَّلْ فِيمَا دَعَا بِهِ الْأَنْبِيَاءُ الْعِظَامُ: مُحَمَّدٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَيُونُسُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمْ-، وَتَأَمَّلْ فِي الْعَاقِبَةِ الْحَمِيدَةِ الَّتِي مَنَحَهُمُ اللهُ -تَعَالَى- إِيَّاهَا؛ فَأَمَّا مُحَمَّدٌ ﷺ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، فَكَانَتِ الْعَاقِبَةُ: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾، وَالْعَاقِبَةُ: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

وَأَمَّا يُونُسُ عليه السلام: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فَكَانَتِ الْعَاقِبَةُ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.(*/٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: «شَرْحُ تَيْسِيرِ اللَّطِيفِ الْمَنَّانِ فِي خُلَاصَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - الْمُحَاضَرَة ١٦ - الِاثْنَيْنِ ٢ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٣٤هـ| ٧-١٠-٢٠١٣م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِمَّا سَبَقَ مِنَ الدَّرْسِ.

إِنَّ الْأُسْوَةَ الْحَسَنَةَ فِي الرَّسُولِ ﷺ؛ فَإِنَّ الْمُتَأَسِّيَ بِهِ سَالِكٌ الطَّرِيقَ الْمُوَصِّلَ إِلَى كَرَامَةِ اللَّهِ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، قَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- فِي أَقْوَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَفْعَالِهِ، وَأَخْلَاقِهِ، وَثِقَتِهِ بِاللهِ، وَثَبَاتِهِ فِي الشَّدَائِدِ وَالْمِحَنِ، وَصَبْرِهِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَقِتَالِهِ بِنَفْسِهِ، وَكُلِّ جُزْئِيَّاتِ سُلُوكِهِ فِي الْحَيَاةِ.. لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِ قُدْوَةٌ صَالِحَةٌ، وَخَصْلَةٌ حَسَنَةٌ، مِنْ حَقِّهَا: أَنْ يُؤْتَسَى وَيُقْتَدَى بِهَا لِمَنْ كَانَ يُؤَمِّلُ مُرْتَقِبًا ثَوَابَ اللهِ، وَيَرْجُو السَّعَادَةَ الْخَالِدَةَ يَوْمَ الدِّينِ، وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا فِي جَمِيعِ الْمَوَاطِنِ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ.(*).

وَقَالَ اللهُ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

أُولَئِكَ النَّبِيُّونَ هُمُ الْمَخْصُوصُونَ بِالْهِدَايَةِ؛ فَاتَّبِعْ يَا رَسُولَ اللهِ هُدَاهُمْ، وَاسْلُكْ سَبِيلَهُمْ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصحَابِهِ أَجمَعِينَ.(*/٢).

❊❊❊

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَى مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [الأحزاب: ٢١].

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَى مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [الأنعام: ٩٠].

الدَّرْسُ السَّادِسُ:

احْذَرُوا عَوَاقِبَ الذُّنُوبِ!

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَعْصِيَةَ تَسْتَنْزِلُ النِّقْمَةَ، وَأَنَّ شُؤْمَ الْمَعْصِيَةِ يَظَلُّ فِي الْأَرْضِ وَإِنْ رُفِعَتِ النِّقْمَةُ.. نَعَمْ، كَمَا ظَلَّتْ تِلْكَ الْأَشْيَاءُ مِنْ آثَارِ النِّقَمِ بَاقِيَةً فِي دُنْيَا اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مِنْ آثَارِ الْأُمَمِ الْبَائِدَةِ الَّتِي أَهْلَكَهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

فَإِنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ قَدْ أَمَرَ بِرَفْعِ قُرَىٰ قَوْمِ لُوطٍ؛ حَتَّىٰ سَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ، ثُمَّ أَمَرَ بِقَلْبِهَا، فَقُلِبَتْ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا حِجَارَةً تَتَهَادَىٰ، فَجَمَعَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَيْنِ(١).

وَكَمَا جَمَعَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَىٰ قَوْمِ نُوحٍ الْعَذَابَيْنِ لَمَّا كَذَّبُوا، فَأَغْرَقَهُمْ، فَالْأَجْسَادُ لِلْغَرَقِ، وَالْأَرْوَاحُ لِلْحَرَقِ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.(*).

---

(١) أخرج ابن جرير في «**التفسير**»: (١٢/ ٨٩- ٩٠)، وابن أبي حاتم في «**التفسير**»: (٦/ ٢٠٦٧، رقم ١١٠٩٦و١١٠٩٨)، عَنْ سَعِيدٍ، قَالَ: فَمَضَتِ الرُّسُلُ مِنْ عِنْدِ إِبْرَاهِيمَ إِلَىٰ لُوطٍ، فَلَمَّا أَتَوْا لُوطًا، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا ذَكَرَ اللهُ، قَالَ جَبْرَئِيلُ لِلُوطٍ: يَا لُوطُ ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١]، فَقَالَ لَهُمْ لُوطٌ: أَهْلِكُوهُمُ السَّاعَةَ فَقَالَ لَهُ جَبْرَئِيلُ عليه السلام: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١] فَأُنْزِلَتْ عَلَىٰ لُوطٍ: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ قَالَ: فَأَمَرَهُ أَنْ يَسْرِيَ بِأَهْلِهِ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ، وَلَا يَلْتَفِتُ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَهُ، قَالَ: فَسَارَ، فَلَمَّا كَانَتِ السَّاعَةُ الَّتِي أُهْلِكُوا فِيهَا أَدْخَلَ جَبْرَئِيلُ جَنَاحَهُ فَرَفَعَهَا حَتَّىٰ سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ، وَنُبَاحَ الْكِلَابِ، فَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا، وَأَمْطَرَ عَلَيْهَا حِجَارَةٌ مِنْ سِجِّيلٍ، قَالَ: وَسَمِعَتِ امْرَأَةُ لُوطٍ الْهَدَّةَ، فَقَالَتْ: وَاقَوْمَاهُ فَأَدْرَكَهَا حَجَرٌ فَقَتَلَهَا».

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «أَعْمَالُكُمْ عُمَّالُكُمْ» - الْجُمُعَةُ ٢٨ مِنَ الْمُحَرَّمِ ١٤٢٨هـ| ١٦-٢-٢٠٠٧م

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

فَكُلُّ فَرِيقٍ مِنَ الْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ قَبَضْنَا عَلَيْهِمْ قَبْضَ إِهْلَاكٍ؛ بِسَبَبِ ذَنْبِهِ الشَّنِيعِ الَّذِي اقْتَرَفَهُ، فَمِنْهُمُ الَّذِينَ رُمُوا بِالْحَصَىٰ الصِّغَارِ، وَهُمْ قَوْمُ لُوطٍ فِي أَرْضِ (سَدُومَ)(١)، وَمِنْهُمْ مَنْ عَذَّبْنَاهُ وَأَهْلَكْنَاهُ بِالصَّرْخَةِ الشَّدِيدَةِ، وَهُمْ ثَمُودُ قَوْمُ صَالِحٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَذَّبْنَاهُ وَأَهْلَكْنَاهُ بِالْخَسْفِ، فَغَاصَ فِي الْأَرْضِ هُوَ وَدَارُهُ وَمَالُهُ؛ كَقَارُونَ وَأَصْحَابِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَذَّبْنَاهُ وَأَهْلَكْنَاهُ بِالْإِغْرَاقِ، وَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ، وَفِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ.

وَمَا كَانَ اللهُ مِنَ الْأَزَلِ إِلَىٰ الْأَبَدِ لِيَظْلِمَهُمْ بِالْهَلَاكِ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ بِالْإِشْرَاكِ، وَارْتِكَابِ الْجَرَائِمِ الْعُظْمَىٰ.(*).

وَلَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ وَمَعَهُ أَصْحَابُهُ عَلَىٰ دِيَارِ ثَمُودَ؛ أَمَرَ بِأَنْ يَمُرُّوا مُسْرِعِينَ، وَأَلَّا يَدْخُلُوا دِيَارَ الْقَوْمِ الْمُعَذَّبِينَ؛ لِشُؤْمِ النِّقْمَةِ الَّتِي حَلَّتْ بِسَبَبِ الْمَعْصِيَةِ.

---

(١) (**سَدُومَ**)، بفتح أوّله: مدينة من مدائن لوط ﷺ، كان قاضيها يقال له سدوم، ويضرب به المثل، ويقال: أجور من قاضىٰ سدوم، وهي بين الحجاز والشام، كانت أحسن بلاد الله وأكثرها مياهًا وأشجارًا وحبوبًا وثمارًا، والآن عبرة للناظرين.

انظر «**معجم ما استعجم من البلاد**»: (٣/ ٧٢٩)، و«**آثار البلاد وأخبار العباد**»: (١/ ٢٠٢)، و«**الروض المعطار في خبر الأقطار**»: (١/ ٣٠٨).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [العنكبوت: ٤٠].

وَكَانَ بَعْضُ الْأَصْحَابِ قَدْ أَخَذَ مَاءً مِنْ بَعْضِ الْآبَارِ مِنْ دِيَارِ الْقَوْمِ الْمُهْلَكِينَ الْمُعَذَّبِينَ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ، فَعُجِنَ بِهِ بَعْضُ الدَّقِيقِ، فَصَارَ عَجِينًا، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَلَّا يُسْتَقَىٰ مِنْ آبَارِهِمْ، وَأَلَّا يُشْرَبَ مِنْ أَمْوَاهِ دِيَارِهِمْ، وَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُعْلَفَ بِهَذَا الْعَجِينِ الَّذِي قَدْ خَالَطَهُ الْمَاءُ الَّذِي أُخِذَ مِنْ آبَارِ الْقَوْمِ الْمُعَذَّبِينَ.. أَنْ تُعْلَفَ بِهِ النَّوَاضِحُ -جَمْعُ نَاضِحٍ: وَهِيَ النَّاقَةُ، أَوِ الْبَعِيرُ يُسْتَسْقَىٰ بِهِ الْمَاءُ مِنَ الْبِئْرِ-، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ لِشُؤْمِ الْمَعْصِيَةِ الَّذِي مَا زَالَ قَائِمًا؛ حَتَّىٰ فِي الْمِيَاهِ، فِي الْآبَارِ، فِي الدِّيَارِ!! أَلَّا تَمُرُّوا عَلَىٰ دِيَارِ الْقَوْمِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا مُسْرِعِينَ مُسْتَغْفِرِينَ مُوَحِّدِينَ مُهَلِّلِينَ؛ حَتَّىٰ لَا يَنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْعَذَابِ شَيْءٌ(١)، وَقَدْ بَادُوا عَلَىٰ بَكْرَةِ أَبِيهِمْ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ؛ وَلَكِنْ شُؤْمُ الْمَعْصِيَةِ بَاقٍ فِي أَرْضِ اللهِ.

فَيَا للهِ كَمْ تَفْعَلُ الْمَعْصِيَةُ بِشُؤْمِهَا فِي أَرْضِ اللهِ؟!!

فَأَيْنَ الْمَخْرَجُ؟!!

وَاضِحٌ صَرِيحٌ، كُلُّ مَا يُعَانِيهِ النَّاسُ؛ مِنْ أَلَمٍ، وَمِنْ هَمٍّ، وَمِنْ غَمٍّ، وَمِنْ حَزَنٍ، وَمِنْ نَصَبٍ(٢)، وَمِنْ وَصَبٍ(٣)؛ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ، وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ.

---

(١) كما في «**صحيح البخاري**»: (١/ ٥٣٠، رقم ٤٣٣)، و«**صحيح مسلم**»: (٤/ ٢٢٨٥-٢٢٨٦، رقم ٢٩٨٠)، مِنْ حَدِيثِ: ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِ الْحِجْرِ: «**لَا تَدْخُلُوا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمُعَذَّبِينَ، إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ**».

(٢) (**النَّصَبُ**): التَّعَبُ.

انظر «**لسان العرب**»: (١/ ٧٥٨، مادة: نصب).

(٣) (**الوَصَبُ**) أي: الوَجَعُ والمرضُ.

=

أَوَيَحْسَبُ الْخَلْقُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ -فَاضِلًا وَغَيْرَ فَاضِلٍ، مُطِيعًا وَعَاصِيًا- الْمَرْحُومَةِ أَنَّهُمْ -أَبْعَاضًا وَمَجْمُوعًا- خَيْرٌ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ؟!!

لَمَّا عَصَوْا أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنْزَلَ بِهِمُ الْكَسْرَةَ، وَأَعْقَبَهُمْ فِي عَرَصَاتِ أُحُدٍ الْحَسْرَةَ، وَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ؛ حَتَّىٰ إِنَّهُمْ لَمَّا أَخَذُوا يَتَدَاوَلُونَ الْأَمْرَ بَيْنَهُمْ مُتَعَجِّبِينَ؛ أَلَيْسُوا بِالْمُشْرِكِينَ؟!! أَلَيْسُوا بِالْكَافِرِينَ؟!! أَلَيْسُوا بِعَابِدِي الْأَوْثَانِ، وَالسَّاجِدِينَ لِلْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ؟!!

أَلَيْسُوا.. أَلَيْسُوا؟! كُلُّ ذَلِكَ كَانَ..

أَلَسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ؟!!

أَلَيْسَ بِالرَّسُولِ الْأَمِينِ ﷺ؟!!

كُلُّ ذَلِكَ كَائِنٌ؛ فَكَانَ مَاذَا؟!!

قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ.(*).

قَالَ رَبُّنَا -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورىٰ: ٣٠].

وَمَا أَصَابَكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- مِنْ مُصِيبَةٍ مَكْرُوهَةٍ عَامَّةٍ تَشْمَلُ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ، أَوْ قَوْمًا مِنَ الْأَقْوَامِ؛ فَبِسَبَبِ مَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ مِنَ الذُّنُوبِ

=

انظر «**لسان العرب**»: (١/ ٧٩٧، مادة: وصب).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «أَعْمَالُكُمْ عُمَّالُكُمْ» - الْجُمُعَةُ ٢٨ مِنَ الْمُحَرَّمِ ١٤٢٨هـ| ١٦-٢-٢٠٠٧م

وَالْمَعَاصِي؛ جَزَاءً، أَوْ تَرْبِيَةً، أَوْ تَذْكِيرًا بِالْجَزَاءِ الْأَكْبَرِ، وَيَمْحُو مِنْ سِجِلِّ الْمُؤَاخَذَةِ كَثِيرًا مِنَ الذُّنُوبِ(١).(*).

وَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

وَضَعَ اللهُ ﷻ فِي تَدَابِيرِ تَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ بِمُجَازَاةِ عِبَادِهِ مُجَازَاةً تَأْدِيبِيَّةً تَحْذِيرِيَّةً مَثَلًا وَاقِعِيًّا قَرِيبًا، هَذَا الْمَثَلُ مَا أَنْزَلَهُ بِأَهْلِ مَكَّةَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ رَسُولِ رَبِّهِمْ؛ بَلْ آذَوْهُ، وَقَاوَمُوا دَعْوَتَهُ؛ كِبْرًا وَعِنَادًا.

وَكَانَتْ مَكَّةُ ذَاتَ أَمْنٍ، لَا يُهَاجُ(٣) أَهْلُهَا، وَلَا يُغَارُ(٤) عَلَيْهِمْ، قَارَّةً بِسُكَّانِهَا، لَا يَحْتَاجُونَ لِلِانْتِقَالِ عَنْهَا، يَأْتِيهَا رِزْقُهَا وَاسِعًا مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، فَكَفَرَ أَهْلُ هَذِهِ الْقَرْيَةِ بِسَائِرِ النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِمْ، وَقَابَلُوا نِعَمَهُ بِالْجُحُودِ وَالْكُفْرِ، وَكَذَّبُوا

---

(١) «**التفسير الميسر**»: (١/ ٤٨٦)، بتصرف يسير وزيادات.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [الشورىٰ: ٣٠].

(٣) (**يُهَاجُ**) أي: يُثَارُ غَضَبُه.

انظر «**القاموس**»: (ص ٢١١، مادة: هيج)، و«**معجم اللغة العربية المعاصرة**»: (٣/ ٢٣٨١، مادة: هاج).

(٤) (**يُغَارُ**) أي: يُغَافِلُ.

انظر «**لسان العرب**»: (٥/ ١٣، مادة: غرر).

رَسُولَهُ، وَكَذَّبُوا بِالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِمْ، فَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ جُوعًا عَامًّا وَخَوْفًا شَامِلًا كَانَا عَلَىٰ تِلْكَ الْقَرْيَةِ كَاللِّبَاسِ الشَّامِلِ لِجَسَدِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ.

وَهَذَا التَّعْذِيبُ بِالْمَصَائِبِ الدُّنْيَوِيَّةِ بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ مِنْ كُفْرِيَّاتٍ وَجَرَائِمَ بِتَعْذِيبِ الْمُؤْمِنِينَ.(*).

فَلْنَحْذَرْ مِنَ الذُّنُوبِ وَعَوَاقِبِهَا؛ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ عَلَى مَنْ أَتَى بِأَسْبَابِ الْعِقَابِ، وَهُوَ الْكُفْرُ، وَالذُّنُوبُ؛ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا، وَتَعَدُّدِ مَرَاتِبِهَا؛ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [الطلاق: ٨-١٠].

«وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ مُجَمَّعَاتٍ سَكَنِيَّةٍ عَصَوْا وَطَغَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَأَمْرِ رُسُلِهِ، فَحَاسَبْنَاهُمْ حِسَابًا شَدِيدًا بِالتَّدْقِيقِ وَالِاسْتِقْصَاءِ لِكُلِّ ذُنُوبِهِمْ، فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُ شَيْئًا، وَعَذَّبْنَاهُمْ عَذَابًا مُنْكَرًا فَظِيعًا.

فَتَجَرَّعُوا سُوءَ مَآلِ أَمْرِهِمْ، وَجَزَاءَ كُفْرِهِمْ، وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِمْ خُسْرَانًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُمْ بَاعُوا نَعِيمَ الْآخِرَةِ بِخَسِيسٍ فِي الدُّنْيَا قَلِيلٍ»(٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [النحل: ١١٢].

(٢) «**التفسير الميسر**»: (ص ٥٥٩)، بتصرف وزيادات.

هَيَّأَ اللهُ لِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ عَذَابًا شَدِيدًا يَنْزِلُ بِهِمْ كَمَا نَزَلَ بِالْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ؛ فَاتَّقُوا اللهَ، وَاحْذَرُوا سَخَطَهُ وَعِقَابَهُ، وَذَلِكَ بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ يَا ذَوِي الْعُقُولِ الرَّاجِحَةِ الْوَاعِيَةِ الدَّرَّاكَةِ الَّتِي تَعْقِلُ الْمَعَارِفَ فَتُمْسِكُ بِهَا، وَتَعْقِلُ النُّفُوسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْهَوَىٰ وَالشَّهَوَاتِ، الَّذِينَ صَدَّقُوا اللهَ، وَاتَّبَعُوا رُسُلَهُ، قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- بِمَا أَوْحَىٰ إِلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ ذِكْرًا تَذْكُرُونَهُ آنًا فَآنًا، وَتَتَدَبَّرُونَ آيَاتِهِ، وَتَتَفَكَّرُونَ فِي مَعَانِيهِ، وَتَعْمَلُونَ بِأَحْكَامِهِ وَوَصَايَاهُ.(*).

وَقَالَ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١].

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَجَحَدُوا الْحَقَّ، وَأَنْكَرُوهُ؛ لَنْ تَدْفَعَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ شَيْئًا إِنْ وَقَعَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَلَنْ تَدْفَعَهُ عَنْهُمْ فِي الْآخِرَةِ.

وَأُولَئِكَ الْبُعَدَاءُ الْمُنْحَطُّونَ إِلَىٰ جِهَةِ الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ هُمْ حَطَبُ جَهَنَّمَ، تَشْتَعِلُ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» -[الطلاق: ٨-١٠].

(٢) «التفسير الميسر»: (ص ٥١)، بتصرف وزيادة يسير.

إِنَّ عَادَةَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ فِي تَكْذِيبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَجُحُودِ الْحَقِّ، وَاسْتِحْقَاقِ الْعَذَابِ كَعَادَةِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ سَبَقُوا فِرْعَوْنَ مِنْ كُفَّارِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ؛ مِثْلَ عَادٍ، وَثَمُودَ، وَغَيْرِهِمْ، كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْكَوْنِيَّةِ، وَالْبَيَانِيَّةِ، وَالْإِعْجَازِيَّةِ، وَالْجَزَائِيَّةِ الْعِقَابِيَّةِ، فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ أَخْذَ إِهْلَاكٍ شَامِلٍ مَقْرُونٍ بِعَذَابٍ شَدِيدٍ.

وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِمَنْ جَحَدَ الْحَقَّ وَأَنْكَرَهُ، وَكَذَّبَ رُسُلَهُ.(*).

إِنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْعَوْدَةِ إِلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَإِنْ لَمْ يَعُدِ النَّاسُ إِلَىٰ رَبِّ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَرْحُومَةِ؛ سَامَهُمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُوءَ الْعَذَابِ؛ حَتَّىٰ يَرْجِعُوا إِلَىٰ دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصحَابِهِ أَجمَعِينَ.(*/٢).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [آل عمران: ١١].

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «وَلِلظَّالِمِينَ أَمْثَالُهَا».

الدَّرْسُ السَّابِعُ:

دَعْوَةُ الْأَنْبِيَاءِ جَمِيعًا إِلَى التَّوْحِيدِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ الْمَرْءَ لَا يَدْخُلُ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، وَلَا يَبْقَىٰ مُسْلِمًا بَعْدَ دُخُولِه إِلَّا إِذَا أَفْرَدَ اللهَ -تَعَالَىٰ- بِالْعِبَادَةِ، فَلَا يَصْرِفُ شَيْئًا مِنَ الطَّاعَاتِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا أَمْرَ إِيجَابٍ أَوْ أَمْرَ اسْتِحْبَابٍ إِلَّا للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا ظَهِيرَ وَلَا مُعِينَ لَهُ، وَلَا شَفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ لِلشَّافِعِ، وَرِضَاهُ بِهَا لِلْمَشْفُوعِ لَهُ.

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿**وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا**﴾ [الجن: ١٨].(*).

وَأَنَّ السُّجُودَ وَالْمَوَاضِعَ الَّتِي بُنِيَتْ لِلصَّلَاةِ وَالْعِبَادَةِ وَذِكْرِ اللهِ ﷻ للهِ وَحْدَهُ؛ فَلَا تَعْبُدُوا -أَيُّهَا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ- مَعَ اللهِ -تَعَالَىٰ- أَحَدًا، وَأَخْلِصُوا الدُّعَاءَ لَهُ.(*/٢).

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿**قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ**﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣].

قُلْ يَا رَسُولَ اللهِ، وَيَا كُلَّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِكَ! فِي حِوَارٍ دَعَوِيٍّ مَعَ الْمُشْرِكِينَ: اسْأَلُوا لِتَحْقِيقِ مَنَافِعَ لَكُمْ، أَوْ لِكَشْفِ ضُرٍّ عَنْكُمْ؛ اسْأَلُوا الَّذِينَ جَعَلْتُمُوهُمْ آلِهَةً تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ غَيْرِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَهُمْ مِنْ دُونِهِ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، خَاضِعُونَ لِتَصَارِيفِهِ، فَجَعَلْتُمُوهُمْ كَذِبًا وَزُورًا وَافْتِرَاءً شُرَكَاءَ للهِ فِي إِلَهِيَّتِهِ، وَفِي بَعْضِ رُبُوبِيَّتِهِ!!

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «تَطْهِيرُ الْقَلْبِ فِي رَمَضَانَ» - الْجُمُعَةُ ٢ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٦هـ| ١٩ - ٦ - ٢٠١٥م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الجن: ١٨].

«إِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ مِقْدَارَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَلَيْسَ لِآلِهَتِكُمْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ مُشَارَكَةٍ لِلرَّبِّ الْخَالِقِ الْمَالِكِ فِي خَلْقِ شَيْءٍ مِنْهُمَا، وَلَا فِي امْتِلَاكِ شَيْءٍ مِنْهُمَا، وَلَا فِي التَّصَرُّفِ فِي شَيْءٍ مِنْهُمَا»(١).

وَلَيْسَ للهِ -سُبْحَانَهُ- مِنْ آلِهَتِكُمُ الْبَاطِلَةِ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ؛ لَيْسَ لَهُ -سُبْحَانَهُ- مِنْ هَؤُلَاءِ مِنْ مُعِينٍ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ تَصَارِيفِهِ فِي كَوْنِهِ.

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَ اللهِ -تَعَالَىٰ- إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ اللهُ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ؛ كَالْمَلَائِكَةِ، وَالرُّسُلِ، وَنَحْوِهِمْ مِنَ الْمُسْتَأْهِلِينَ لِمَقَامِ الشَّفَاعَةِ عِنْدَهُ؛ فَلَا تَطْمَعُوا -أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ- بِأَنْ تَشْفَعَ لَكُمْ آلِهَتُكُمُ الَّتِي تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ.(*).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٨٠].

اسْتَغْفَرْتَ -يَا رَسُولَ اللهِ وَيَا كُلَّ مُؤْمِنٍ مِنْ أَتْبَاعِهِ- لِهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ أَوْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ؛ مَهْمَا كَثُرَ اسْتِغْفَارُكَ لَهُمْ وَتَكَرَّرَ؛ بِسَبَبِ أَنَّهُمُ اخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ.(*/٢).

وَهَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ الَّذِي أَرْسَلَ اللهُ بِهِ جَمِيعَ رُسُلِهِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ-.

---

(١) «**التفسير الميسر**»: (ص ٤٣٠)، بتصرف يسير وزيادة تعليق.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» -[سبأ: ٢٢-٢٣].

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [التوبة: ٨٠].

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].(*).

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا﴾؛ أَيْ: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾: فِي كُلِّ طَائِفَةٍ، وَقَرْنٍ، وَجِيلٍ مِنَ النَّاسِ ﴿رَّسُولًا﴾: الرَّسُولُ: مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ وَأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ، ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: أَفْرِدُوهُ بِالْعِبَادَةِ، ﴿وَاجْتَنِبُوا﴾: وَاتْرُكُوا وَفَارِقُوا ﴿الطَّاغُوتَ﴾: مِنَ الطُّغْيَانِ، وَهُوَ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ؛ وَهُوَ كُلُّ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ؛ مِنْ مَعْبُودٍ، أَوْ مَتْبُوعٍ، أَوْ مُطَاعٍ.

الطَّاغُوتُ: كُلُّ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ؛ مِنْ مَعْبُودٍ -كَالْأَصْنَامِ-، أَوْ مَتْبُوعٍ -كَالْكُهَّانِ، وَالسَّحَرَةِ-، أَوْ مُطَاعٍ -كَمَنْ تَوَلَّىٰ أَمْرًا وَأَمَرَ بِمَعْصِيَةِ اللهِ ﷻ-؛ فَلَا يُنَفَّذُ أَمْرُهُ فِي الْمَعْصِيَةِ، وَتَنْبَغِي طَاعَتُهُ فِيمَا سِوَاهُ.(*/٢).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا مَعْبُودَ يُعْبَدُ بِحَقٍّ إِلَّا أَنَا؛ فَوَحِّدُونِي وَأَخْلِصُوا الْعِبَادَةَ لِي»(٣).(*/٣).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «تَطْهِيرُ الْقَلْبِ فِي رَمَضَانَ» - الْجُمُعَةُ ٢ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٦هـ| ١٩-٦-٢٠١٥م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: «شَرْحُ كِتَابِ التَّوْحِيدِ» - «الْمُحَاضَرَةُ الثَّالِثَةُ: مَوْضُوعُ كِتَابِ التَّوْحِيدِ» - السَّبْتُ ٢١ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٥هـ| ١٩-٧-٢٠١٤م.

(٣) «**التفسير الميسر**»: (ص ٣٢٤)، بتصرف وزيادة يسير.

(*/ ٣) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الأنبياء: ٢٥].

هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ الَّذِي وَقَعَتْ فِيهِ الْخُصُومَةُ بَيْنَ الرُّسُلِ وَأُمَمِهِمْ؛ إِذْ قَالُوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].(*).

أَجَعَلَ مُحَمَّدٌ الْآلِهَةَ الْمُتَعَدِّدَةَ إِلَهًا وَاحِدًا؟!! إِنَّ هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ وَدَعَا إِلَيْهِ لَشَيْءٌ يُتَعَجَّبُ مِنْهُ أَشَدَّ التَّعَجُّبِ.(*/٢).

هَذَا التَّوْحِيدُ هُوَ أَوَّلُ الْوَاجِبَاتِ، وَأَهَمُّ الْمُهِمَّاتِ فِي دِينِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وَهُوَ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ عَمَلًا صَالِحًا إِلَّا بَعْدَ تَحَقُّقِهِ.

قَالَ اللهُ جَلَّوَعَلَا لِنَبِيِّهِ ﷺ قُدْوَةً لِأُمَّتِهِ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].(*/٣).

وَنُؤَكِّدُ بِشِدَّةٍ أَنَّهُ «قَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَأُوحِيَ إِلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الرُّسُلِ؛ قَائِلِينَ لِكُلِّ رَسُولٍ وَنَبِيٍّ: نُقْسِمُ لَكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ بِاللهِ غَيْرَهُ؛ لَيَبْطُلَنَّ عَمَلُكَ الصَّالِحُ الَّذِي عَمِلْتَهُ قَبْلَ الشِّرْكِ، وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الْخَاسِرِينَ»(٤).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «تَطْهِيرُ الْقَلْبِ فِي رَمَضَانَ» - الْجُمُعَةُ ٢ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٦هـ| ١٩-٦-٢٠١٥م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [ص: ٥].

(*/ ٣) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «تَطْهِيرُ الْقَلْبِ فِي رَمَضَانَ» - الْجُمُعَةُ ٢ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٦هـ| ١٩-٦-٢٠١٥م.

(٤) «**التفسير الميسر**»: (ص ٤٦٥)، بتصرف وزيادة يسيرة.

وَهَذَا خِطَابٌ بِصَرِيحِ الْقَوْلِ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَهُوَ تَعْرِيضٌ لِكُلِّ مَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ أَنْ يَحْذَرُوا مِنَ الشِّرْكِ؛ لِئَلَّا تَحْبَطَ أَعْمَالُهُمْ وَيَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ.

فَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ عِنْدَ رَبِّهِ الْحِمَايَةَ مِنْ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَيَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ إِذَا أَشْرَكَ، وَهُوَ ذُو الْمَكَانَةِ الْعَالِيَةِ عِنْدَ رَبِّهِ، وَالْمَخْصُوصُ بِالِاصْطِفَاءِ؛ فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ سَائِرِ النَّاسِ الَّذِينَ لَيْسَ لَدَيْهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ مِثْلُ تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ وَالْمَكَانَةِ؟!!

لَا تُجِبْهُمْ يَا رَسُولَ اللهِ إِلَىٰ مَا طَلَبُوهُ مِنْكَ، بَلِ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَاعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ الْعِبَادَةَ، وَكُنْ مِنَ الْعَامِلِينَ بِمَا يُرْضِي رَبَّكَ عَنْكَ، وَالشَّاكِرِينَ عَلَىٰ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكَ.(*).

اللهُ جَلَّوَعَلَا وَحْدَهُ هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ، وَالرِّزْقِ، وَالتَّدْبِيرِ، وَالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ، وَالْمُلْكِ، قَالَ اللهُ جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الحديد: ٢].

وَهَذَا التَّوْحِيدُ هُوَ الْمُسَمَّىٰ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَهُوَ مُسْتَقِرٌّ فِي نُفُوسِ الْخَلْقِ، لَا يَكَادُ يُنَازِعُ الْخَالِقَ فِيهِ أَحَدٌ مِمَّنْ خَلَقَ؛ مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا؛ كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّوَعَلَا عَنِ الْمُشْرِكِينَ الْكَافِرِينَ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [الزمر: ٦٥-٦٦].

﴿ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

فَلَمْ يَكُنِ الْمُشْرِكُونَ الْكَافِرُونَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ آلِهَتَهُمْ تُشَارِكُ اللهَ فِي الْخَلْقِ، أَوِ الرِّزْقِ، أَوِ الْإِحْيَاءِ، أَوِ الْإِمَاتَةِ، أَوِ الْمُلْكِ، أَوِ التَّدْبِيرِ؛ بَلْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ للهِ وَحْدَهُ، كَمَا وَرَدَ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مُفَصَّلًا، وَإِنَّمَا اتَّخَذُوا آلِهَتَهُمْ قُرْبَةً وَوَسِيلَةً لَهُمْ إِلَىٰ اللهِ -تَعَالَىٰ-، وَشُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَهُ، قَالَ اللهُ جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وَهَذَا مَا يَفْعَلُهُ الْيَوْمَ أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ؛ فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِمْ، يَدْعُونَ أَوْلِيَاءَهُمْ، وَيَسْتَغِيثُونَ بِهِمْ؛ بَلْ يَذْبَحُونَ وَيَنْذِرُونَ لَهُمْ، وَيَطُوفُونَ بِأَضْرِحَتِهِمْ؛ بَلْ يَطْلُبُونَ مِنْهُمُ الْمَدَدَ بِحُجَّةِ التَّقَرُّبِ وَالِاسْتِشْفَاعِ بِهِمْ إِلَىٰ اللهِ.

وبَيَّنَ اللهُ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَفِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ أَنَّ إِقْرَارَهُمْ بِأَنَّ اللهَ وَحْدَهُ خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ فِي وُجُوبِ إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ وَالدُّعَاءِ للهِ وَحْدَهُ، وَأَنَّ مُجَرَّدَ الْإِقْرَارِ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ لَهُمْ لَمْ يَنْفَعْهُمْ؛ إِذْ لَمْ يُفْرِدُوهُ -تَعَالَىٰ- بِالْعُبُودِيَّةِ، وَلَمْ يُخْلِصُوا الْعِبَادَةَ لَهُ وَحْدَهُ.(*).

مِنْ رَحْمَةِ رَبِّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِعِبَادِهِ: أَنْ أَرْسَلَ لَهُمُ الرُّسُلَ، بَدْءًا بِنُوحٍ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، وَانْتِهَاءً بِمُحَمَّدٍ ﷺ، أَرْسَلَهُمْ لِلدَّعْوَةِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الشِّرْكِ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «تَطْهِيرُ الْقَلْبِ فِي رَمَضَانَ» - الْجُمُعَةُ ٢ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٦هـ| ١٩-٦-٢٠١٥م.

إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَرْسَلَ هَذَا الرَّكْبَ الْمُبَارَكَ مِنْ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ؛ مِنْ أَجْلِ هِدَايَةِ الْبَشَرِيَّةِ لَمَّا حَادَتْ عَنِ الطَّرِيقِ وَضَلَّتْ، وَدَخَلَ الشِّرْكُ عَلَيْهَا فِي قَوْمِ نُوحٍ، فَأَرْسَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ نُوحًا وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ، إِلَىٰ أَنْ جَاءَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ مُحَمَّدٌ ﷺ.

وَدَعْوَتُهُمْ وَاحِدَةٌ: عِبَادَةُ اللهِ، وَاجْتِنَابُ الطَّاغُوتِ.(*).

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الَّذِينَ يُحَقِّقُونَ التَّوْحِيدَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَمَنْهَجًا وَدَعْوَةً وَسُلُوكًا، وَأَنْ يَقْبِضَنَا عَلَىٰ ذَلِكَ بِرَحْمَتِهِ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصحَابِهِ أَجمَعِينَ.(*/٢).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: «شَرْحُ كِتَابِ التَّوْحِيدِ» - «الْمُحَاضَرَةُ الثَّالِثَةُ: مَوْضُوعُ كِتَابِ التَّوْحِيدِ» - السَّبْتُ ٢١ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٥هـ| ١٩-٧-٢٠١٤م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [الأنعام: ٨٢].

الدَّرْسُ الثَّامِنُ:

مَثَلُ الْمُوَحِّدِ وَالْمُشْرِكِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَقَدْ قَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

«أَخْبَرَ -تَعَالَىٰ- أَنَّهُ يَضْرِبُ لِلنَّاسِ الْأَمْثَالَ، وَيُوَضِّحُ لِعِبَادِهِ فِي كِتَابِهِ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ؛ لِأَجْلِ أَنْ يَتَفَكَّرُوا فِي آيَاتِهِ وَيَتَدَبَّرُوهَا؛ فَإِنَّ التَّفَكُّرَ فِيهَا يَفْتَحُ لِلْعَبْدِ خَزَائِنَ الْعِلْمِ، وَيُبَيِّنُ لَهُ طُرُقَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَيَحُثُّهُ عَلَىٰ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الشِّيَمِ(١)، وَيَزْجُرُهُ عَنْ مَسَاوِئِ الْأَخْلَاقِ، فَلَا أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ مِنَ التَّفَكُّرِ فِي الْقُرْآنِ، وَالتَّدَبُّرِ لِمَعَانِيهِ»(٢) لَوْ عَقَلَ.(*).

وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِمَنْ عَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ، يَقْصِدُ بِهِ التَّعَزُّزَ وَالتَّقَوِّيَ وَالنَّفْعَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ بِخِلَافِ مَقْصُودِهِ؛ فَإِنَّ مَثَلَهُ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١-٤٢].

---

(١) (الشِّيَم)، جمع الشِّيمةُ أي: الخُلُقُ.

«لسان العرب»: (١٢/ ٣٢٩، مادة: (شيم).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن»: (ص ٨٥٣).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: «تَفْسِيرُ السَّعْدِيِّ» (تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَشْرِ)، السَّبْتُ ١ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣١هـ| ١٦-١-٢٠١٠م.

وَصْفُ الْمُشْرِكِينَ -الَّذِينَ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ؛ لِيَكُونُوا لَهُمْ أَوْلِيَاءَ يَحْمُونَهُمْ، وَيَنْصُرُونَهُمْ بِقُوًى غَيْبِيَّةٍ يَتَوَهَّمُونَهَا لَهُمْ؛ وَصْفُ هَؤُلَاءِ كَوَصْفِ بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ الَّذِي تُلْغِي وُجُودَهُ قَشَّةٌ ضَئِيلَةُ الْحَجْمِ، ضَعِيفَةُ الْقُوَّةِ.

فَهُمْ وَاهِمُونَ فِي اعْتِمَادِهِمْ عَلَىٰ حِمَايَةِ أَوْلِيَائِهِمْ مِنْ دُونِ اللهِ، وَالْقُوَىٰ الَّتِي يَنْسُبُونَهَا إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ هِيَ مِنْ صِنْفِ خُيُوطِ الْعَنْكَبُوتِ، وَإِنَّ أَضْعَفَ الْبُيُوتِ الَّتِي تَتَّخِذُهَا الْكَائِنَاتُ الْحَيَّةُ: هُوَ بَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ.

لَوْ كَانُوا حَرِيصِينَ عَلَىٰ أَنْ يَعْلَمُوا الْحَقِيقَةَ؛ لَعَلِمُوا أَنَّ اعْتِمَادَهُمْ عَلَىٰ قُوَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِنُصْرَتِهِمْ وَحِمَايَتِهِمْ، أَوْ دَفْعِ الضُّرِّ عَنْهُمْ يُسَاوِي اعْتِمَادَهُمْ عَلَىٰ قُوَّةٍ تُسَاوِي قُوَّةَ بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ.

وَلَوْ أَنَّهُمْ عَلِمُوا هَذِهِ الْحَقِيقَةَ؛ لَنَبَذُوا[1] عَقَائِدَهُمُ الشِّرْكِيَّةَ نَبْذَ الْقُشُورِ إِلَىٰ رُكَامِ الْقُمَامَاتِ.

إِنَّ اللهَ الْمُحِيطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا يَعْلَمُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ مَا يَعْبُدُونَ وَلَا يَسْأَلُونَ لِمَطَالِبِهِمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شَيْئًا مَا تُؤَهِّلُهُ صِفَاتُهُ لِجَلْبِ نَفْعٍ لَهُمْ، أَوْ دَفْعِ ضُرٍّ عَنْهُمْ، إِنَّمَا يَدْعُونَ أَوْهَامًا اصْطَنَعُوهَا افْتِرَاءً عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ، وَجَعَلُوهَا شُرَكَاءَ للهِ، وَهُوَ ذُو الْقُوَّةِ الْغَالِبَةِ وَالْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي مَوَاضِعِهَا عَلَىٰ أَحْسَنِ وَجْهٍ وَأَكْمَلِهِ، وَيَخْتَارُ أَفْضَلَ الْمُخْتَارَاتِ وَأَتْقَنَهَا فِي الْأُمُورِ الْمُخْتَلِفَةِ لِمَا يُعْطِي أَحْسَنَ النَّتَائِجِ.

---

(١) (**لَنَبَذُوا**)، أي: لَطَرَحُوا، وَنَبَذْتُ الشَّيْءَ أَيضًا إِذا رَمَيْتَهُ وأَبعدته.

انظر «**لسان العرب**»: (٣/ ٥١١، مادة: نبذ).

وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ السَّامِيَةُ فِي أُسْلُوبِهَا وَدَلَالَاتِهَا نُبَيِّنُهَا لِلنَّاسِ؛ مِنْ أَجْلِ إِقْنَاعِهِمْ وَهِدَايَتِهِمْ لِلْحَقِّ، وَمَا يَعْقِلُ دَلَالَاتَهَا الْعَمِيقَةَ وَيَتَمَسَّكُ بِمَا تُرْشِدُ إِلَيْهِ إِلَّا الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ يَعْقِلُونَهَا، وَيَفْهَمُونَ الْغَايَةَ مِنْهَا.

أَمَّا الَّذِينَ يُعَطِّلُونَ أَدَوَاتِ الْمَعْرِفَةِ فِيهِمْ، وَيَضَعُونَ الْأَغْشِيَةَ عَلَىٰ أَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَعُقُولِهِمْ؛ فَلَيْسُوا جَدِيرِينَ بِأَنْ يَعْقِلُوهَا، أَوْ يَفْهَمُوا الْغَايَةَ مِنْهَا، أَوْ يَعْمَلُوا بِهِدَايَاتِهَا إِذَا هُمْ فَهِمُوا مَعَانِيَهَا.

وَقَالَ اللهُ ﷻ: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٧٦].

«وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِبُطْلَانِ الشِّرْكِ؛ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا وُلِدَ أَخْرَسَ، لَا يَفْهَمُ وَلَا يُفْهِمُ، وَعَاجِزٌ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَعْمَلَ شَيْئًا، وَهُوَ ثَقِيلٌ عَلَىٰ مَنْ يَلِي أَمْرَهُ وَيَعُولُهُ، حَيْثُمَا يُرْسِلْهُ وَيُصَرِّفْهُ فِي طَلَبِ حَاجَةٍ، أَوْ كِفَايَةِ مُهِمٍّ؛ لَا يَأْتِ بِنُجْحٍ؛ لِأَنَّهُ أَخْرَسُ عَاجِزٌ!

هَلْ يَسْتَوِي صَاحِبُ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ وَمَنْ هُوَ سَلِيمُ الْحَوَاسِّ، ذُو رُشْدٍ وَرَأْيٍ، يَأْمُرُ النَّاسَ بِالْعَدْلِ وَالْخَيْرِ، وَهُوَ فِي نَفْسِهِ عَلَىٰ سِيرَةٍ صَالِحَةٍ وَدِينٍ قَوِيمٍ؟!! هَلْ يَسْتَوِي هَذَانِ الرَّجُلَانِ فِي مَفَاهِيمِكُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ؟!!

فَكَيْفَ تُسَوُّونَ فِي الْإِلَهِيَّةِ بَيْنَ أَوْثَانِكُمُ الْجَامِدَةِ الَّتِي لَا يُرْجَىٰ مِنْهَا خَيْرٌ، وَلَا يُخْشَىٰ مِنْهَا ضُرٌّ، وَبَيْنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، خَالِقِ الْكَوْنِ، وَالْمُتَصَرِّفِ بِكُلِّ شَيْءٍ فِيهِ، وَالْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا؟!!»(١).(*).

كُلُّ مَا فِي الْحَيَاةِ مِنْ نَشَاطٍ وَحَرَكَةٍ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ للهِ مِنْ ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ؛ فَتَتَحَقَّقُ -حِينَئِذٍ- وَحْدَةُ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَتَهْدَأُ وَتَسْتَقِرُّ الرُّوحُ، وَيَطْمَئِنُّ الضَّمِيرُ، وَيَهْدَأُ الْجَنَانُ، وَتَسْتَقِيمُ عَلَىٰ الصِّرَاطِ الْأَقْدَامُ.

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

عَبْدٌ وَاحِدٌ لِرَبٍّ وَاحِدٍ، لِإِلَهٍ وَاحِدٍ، يُحَقِّقُ أَمْرَهُ، وَيَجْتَنِبُ نَهْيَهُ، وَيَعْبُدُهُ مُخْلِصًا لَهُ الْعِبَادَةَ وَالدِّينَ؛ أَهَذَا فِي اسْتِقْرَارِ قَلْبِهِ، وَقَرَارِ ضَمِيرِهِ، وَرَاحَةِ فُؤَادِهِ وَرُوحِهِ كَمَنْ فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ(٣)، هَذَا يَأْمُرُهُ وَهَذَا يَنْهَاهُ، وَهَذَا يُقِيمُهُ وَهَذَا يُقْعِدُهُ، وَهَذَا يُوقِظُهُ وَهَذَا يُنِيمُهُ؛ فَأَنَّىٰ يَسْتَقِرُّ لِهَذَا قَلْبٌ عَلَىٰ قَرَارٍ؟!!

هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا؟!!

سَيُجِيبُ كُلُّ مَنْ آتَاهُ اللهُ عَقْلًا: لَا يَسْتَوِيَانِ.

---

(١) «**التفسير الميسر**»: (ص ٢٧٥)، بتصرف يسير وزيادات.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» -[النحل: ٧٦].

(٣) (**مُتَشَاكِسُونَ**) أَي: مُخْتَلِفُونَ مُتَنَازِعُونَ.

انظر «**لسان العرب**»: (٦/ ١١٢، مادة: شكس).

الْحَمْدُ للهِ.. لَقَدْ نَطَقْتُمْ أَنْتُمْ، وَأَجَبْتُمْ عَنِ الْمَثَلِ الَّذِي ضَرَبْتُ لَكُمْ لِلْمُوَحِّدِ وَالْمُشْرِكِ.. هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا؟!

وَالْجَوَابُ هَاهُنَا مَحْذُوفٌ؛ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ، وَالتَّعْقِيبُ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].(*).

«وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ؛ فَكَأَنَّمَا سَقَطَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَىٰ الْأَرْضِ، فَتَسْتَلِبُهُ جَوَارِحُ الطَّيْرِ، وَتَذْهَبُ بِهِ بِسُرْعَةٍ، وَتُقَطِّعُهُ وَتُمَزِّقُهُ بِمَخَالِبِهَا، أَوْ تَمِيلُ وَتَذْهَبُ بِهِ الرِّيحُ، فَتَقْذِفُهُ فِي مَكَانٍ بَعِيدٍ مُهْلِكٍ»(٢)، وَكَذَلِكَ الْمُشْرِكُ فِي ضَلَالِهِ وَهَلَاكِهِ وَحَيْرَتِهِ، يَهْوِي بِهِ شِرْكُهُ مِنْ أَوْجِ الْإِيمَانِ إِلَىٰ مَهَاوِي الضَّلَالَةِ وَحَضِيضِ الْكُفْرِ، وَيَعِيشُ قَلِقًا، مُضْطَرِبَ النَّفْسِ، مُشَتَّتَ الْفِكْرِ.(*/٢).

هَذَا حَالُ الْمُشْرِكِ.

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾، تَأَمَّلْ فِي مَثَلِ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ: ﴿كَٱلَّذِي ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ» - الْجُمُعَةُ ١٢ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٣هـ| ٢٨-٠٩-٢٠١٢م.

(٢) «تفسير البغوي»: (٥/ ٣٨٣)، وزيادات يسيرة.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الحج: ٣١].

أَصۡحَٰبٌ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٧١].(*).

«**قُلْ -أَيُّهَا الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ- لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا لِدَعْوَتِكُمْ إِلَىٰ عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ**: أَنَعْبُدُ الْأَصْنَامَ الَّتِي لَا تَنْفَعُ مَنْ عَبَدَهَا، وَلَا تَضُرُّ مَنْ تَرَكَ عِبَادَتَهَا، وَنَرْجِعُ مُنْقَلِبِينَ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا مِنَ الِارْتِقَاءِ إِلَىٰ الِانْتِكَاسِ فِي هَاوِيَةٍ سَحِيقَةٍ بَعْدَ وَقْتِ هِدَايَةِ اللهِ لَنَا؛ دَعْوَةً عَنْ طَرِيقِ رَسُولِهِ، وَتَوْفِيقًا بِتَحْبِيبِ الْإِيمَانِ لَنَا، وَشَرْحِ صُدُورِنَا لِلْإِسْلَامِ، وَتَطْبِيقِهِ فِي سُلُوكِنَا؛ كَالَّذِي اسْتَمَالَتْهُ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ بِزُخْرُفِ أَقْوَالِهَا، فَأَلْقَتْهُ فِي هَاوِيَةٍ سَحِيقَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، تَائِهًا ضَالًّا، لَا يَدْرِي مَا يَصْنَعُ!!

لِهَذَا الْمُتَحَيِّرِ أَصْحَابٌ مُؤْمِنُونَ مُسْلِمُونَ كَانَ مَعَهُمْ عَلَىٰ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ قَبْلَ أَنْ تَسْتَمِيلَهُ الشَّيَاطِينُ إِلَىٰ مَسَالِكِهَا، يَدْعُونَهُ إِلَىٰ الْهُدَىٰ، يَقُولُونَ لَهُ نَاصِحِينَ مُرْشِدِينَ: ائْتِنَا، فَلَا يُجِيبُهُمْ!!

قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ، وَيَا كُلَّ دَاعٍ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّهِ مِنْ أُمَّتِهِ: إِنَّ طَرِيقَ اللهِ الَّذِي أَوْضَحَهُ لِعِبَادِهِ، وَدِينَهُ الَّذِي شَرَعَهُ لَهُمْ هُوَ وَحْدَهُ الْهُدَىٰ وَالنُّورُ، وَكُلُّ مَا هُوَ مُضَادٌّ لَهُ بَاطِلٌ.

وَقُلْ لَهُمْ -أَيْضًا-: أُمِرْنَا جَمِيعًا بِالتَّكَالِيفِ وَالشَّرَائِعِ الدِّينِيَّةِ؛ لِأَجْلِ أَنْ نُسْلِمَ وَنُخْلِصَ الْعِبَادَةَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ الْمُهَيْمِنِ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ جَمِيعِ الْعَالَمِينَ بِصِفَاتِ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ» - الْجُمُعَةُ ١٢ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٣هـ| ٢٨-٠٩-٢٠١٢م.

رُبُوبِيَّتِهِ، الشَّامِلَةِ لِلْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ، وَالضُّرِّ وَالنَّفْعِ؛ فَبِهَذَا الْإِسْلَامِ نُحَقِّقُ عُبُودِيَّتَنَا لِخَالِقِنَا وَمَالِكِنَا، وَمُمِدِّنَا دَوَامًا بِعَطَاءَاتِهِ»(١).(*).

إِنَّ الشِّرْكَ يَقْضِي عَلَىٰ مَنَازِعِ النَّفْسِ السَّامِيَةِ، وَيُحَطِّمُ مُثُلَهَا الْعُلْيَا.

إِنَّ الشِّرْكَ مُسَوِّغٌ لِلْخُرَافَاتِ وَالْأَبَاطِيلِ.

إِنَّ الشِّرْكَ مَبْعَثٌ لِلْمَخَاوِفِ.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾؛ مِنَ الْآلِهَةِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ﴾، مَا أَعْجَبَ الْمُفَارَقَةَ!! ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨١]، كَيْفَ أَخَافُ آلِهَتَكُمُ الْبَاطِلَةَ الَّتِي لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تَخَافُونَ أَنْتُمْ فِي الْوَقْتِ عَيْنِهِ «اللهَ» الَّذِي بِيَدِهِ مَقَالِيدُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؟!!

كَيْفَ أَخَافُ آلِهَتَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَخَافُونَ الْإِلَهَ الْحَقَّ الَّذِي أَعْبُدُ؟!!

﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨١-٨٢].(*/٢).

---

(١) «التفسير الميسر»: (ص ١٣٦)، بتصرف واختصار يسير وزيادات.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [الأنعام: ٧١].

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ» - الْجُمُعَةُ ١٢ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٣هـ| ٢٨-٠٩-٢٠١٢م.

«وَخَاصَمَهُ قَوْمُهُ الْمُشْرِكُونَ -قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام- فِي تَوْحِيدِ اللهِ -سُبْحَانَهُ-، وَخَوَّفُوهُ مِنْ أَصْنَامِهِمْ؛ فَقَالَ لَهُمْ: أَتُخَاصِمُونَنِي فِي تَوْحِيدِ اللهِ وَإِفْرَادِهِ بِالْعِبَادَةِ وَقَدْ وَفَّقَنِي رَبِّي إِلَيْهِ؟!! وَلَسْتُ أَخَافُ مِنْ أَصْنَامِكُمْ؛ فَإِنَّهَا لَا تَمْلِكُ ضَرًّا فَتَضُرَّنِي، وَلَا نَفْعًا فَتَنْفَعَنِي؛ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ، فَمَا شَاءَ اللهُ كَانَ.

وَمَعَ عِلْمِ اللهِ كُلَّ شَيْءٍ؛ فَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ؛ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ -يَا قَوْمِي- مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللهِ وَالشِّرْكِ بِهِ؛ فَتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ؟!!

وَكَيْفَ يَقَعُ مِنِّي خَوْفٌ لِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْثَانٍ، وَلَا يَقَعُ مِنْكُمْ أَنْتُمْ خَوْفٌ لِشِرْكِكُمْ بِاللهِ حِينَ أَشْرَكْتُمْ مَعَهُ مَا خَلَقَهُ دُونَ بُرْهَانٍ؟!!

فَأَيُّ الْجَمْعَيْنِ -جَمْعِ الْمُوَحِّدِينَ، وَجَمْعِ الْمُشْرِكِينَ- أَوْلَىٰ بِالْأَمْنِ وَالسَّلَامَةِ؟!! إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَوْلَاهُمَا فَاتَّبِعُوهُ، وَأَوْلَاهُمَا دُونَ رَيْبٍ هُوَ جَمْعُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُوَحِّدِينَ.

الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الْأَمْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِيمَانًا صَحِيحًا صَادِقًا، وَلَمْ يَخْلِطُوا إِيمَانَهُمْ بِشِرْكٍ فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ إِلَهِيَّتِهِ»[1].

أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ رَفِيعُو الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمُ الْأَمْنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ مَخَاوِفِ عَذَابِ النَّارِ؛ لِتَسْلِيمِ اللهِ لَهُمْ، وَحِفْظِهِمْ وَرِعَايَتِهِمْ، وَالْعَفْوِ عَنْ

(١) «**المختصر في تفسير القرآن**»: (ص ١٣٧)، بتصرف واختصار يسير وزيادة تعليق.

ذُنُوبِهِمْ، وَزَحْزَحَتِهِمْ عَنِ النَّارِ، وَإِدْخَالِهِمُ الْجَنَّةَ، وَأُولَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ إِلَىٰ سَبِيلِ الرَّشَادِ.

فَبَيَّنَ اللهُ جَلَّوَعَلَا أَنَّ الَّذِينَ يُؤْتِيهِمُ الْأَمْنَ وَالْهِدَايَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.. أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ، وَالظُّلْمُ هَاهُنَا: الشِّرْكُ ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وَلَمَّا قَالَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم: وَأَيُّنَا يَا رَسُولَ اللهِ لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟!!

فَذَهَبُوا إِلَىٰ الظُّلْمِ الْأَصْغَرِ الَّذِي هُوَ دُونَ الشِّرْكِ.

قَالَ ﷺ: «**لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ** -يُرِيدُ لُقْمَانَ-: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»(١)؛ فَالظُّلْمُ هَاهُنَا: هُوَ الشِّرْكُ الْأَكْبَرُ.

فَالَّذِينَ آمَنُوا، وَحَقَّقُوا التَّوْحِيدَ الْخَالِصَ، وَلَمْ يَتَلَبَّسُوا بِشَيْءٍ مِنْ قَاذُورَاتِ الشِّرْكِ وَلَا نَجَاسَاتِهِ؛ أُولَئِكَ لَهُمْ أَمْنٌ كَامِلٌ وَهِدَايَةٌ كَامِلَةٌ، فَإِذَا نَقَصَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ؛ نَقَصَ مِنْ أَمْنِهِمْ وَهِدَايَتِهِمْ عَلَىٰ قَدْرِ مَا نَقَصُوا مِنْ تَحْقِيقِ تَوْحِيدِهِمْ.(*).

---

(١) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: (١/ ٨٧، رقم ٣٢)، و(٦/ ٣٨٩، رقم ٣٣٦٠)، ومسلم في «**الصحيح**»: (١/ ١١٤، رقم ١٢٤)، من حديث: عَبْدِ اللهِ ابْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه. وللبخاري: «وَأَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ؟».

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [الأنعام: ٨١-٨٢].

الشِّرْكُ يُحْبِطُ الْعَمَلَ دُنْيَا وَآخِرَةً.

نَسْأَلُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ أَنْ يُحَقِّقَنَا بِالتَّوْحِيدِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، قَوْلًا وَعَمَلًا، وَأَنْ يُنْقِذَنَا مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ، إِنَّهُ -تَعَالَىٰ- عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٌ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.(*).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ» - الْجُمُعَةُ ١٢ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٣هـ| ٢٨-٠٩-٢٠١٢م.

الدَّرْسُ التَّاسِعُ:

دُرُوسٌ قُرْآنِيَّةٌ فِي تَرْبِيَةِ الْأَبْنَاءِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

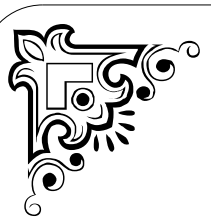

الْأَوْلَادُ هِبَةٌ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ

فَالْأَوْلَادُ هِبَةٌ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، **وَهُمْ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

الْمَالُ الْكَثِيرُ الْوَفِيرُ، وَالْبَنُونَ الْكَثِيرُونَ زِينَةُ هَذِهِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ.(*).

الْوَلَدُ الصَّالِحُ يَكُونُ قُرَّةَ عَيْنٍ لِلْمَرْءِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَزُخْرًا لَهُ بَعْدَ الْمَمَاتِ، ثُمَّ يَكُونُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَفْعًا فِي الدَّرَجَاتِ.(*/٢).

إِنَّ رِعَايَةَ الْوَلَدِ وَتَرْبِيَتَهُ وَتَأْدِيبَهُ كَمَنْ يَزْرَعُ؛ لِيَحْصُدَ؛ فَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبْزَىٰ، قَالَ: قَالَ دَاوُدُ: «**اعْلَمْ أَنَّكَ كَمَا تَزْرَعُ؛ كَذَلِكَ تَحْصُدُ**»(٣). وَهَذَا الْأَثَرُ صَحِيحٌ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «التَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ [الكهف: ٤٦]».

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «نِعْمَةُ الزَّوَاج».

(٣) «**الأدب المفرد**»: ص٤٦، رقم (١٣٨)، وأخرجه أيضا: عبد الرزاق في «**جامع معمر**»: ١١/ ٣٠٠، رقم (٢٠٥٩٣)، وأبو عبيد في «**الخطب والمواعظ**»: ص١٣٩ و١٤٠، رقم (٥٣ و٥٤)، وابن أبي الدنيا في «**إصلاح المال**»: ص١٢٢، رقم (٤٤٦)، وفي «**العيال**»: ٢/ ٨٢٠، رقم (٦١٩)، والخرائطي في «**مكارم الأخلاق**»: ص٢١٨، رقم (٦٦٥)، والبيهقي في «**شعب الإيمان**»: ١٣/ ٣٩٣.

=

هَذِهِ مِنَ الْحِكَمِ الْبَلِيغَةِ الَّتِي يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَتَأَمَّلَ فِيهَا مَلِيًّا، وَأَنْ يَجْعَلَهَا دَائِمًا شِعَارَهُ وَرَائِدَهُ.

«**وَاعْلَمْ أَنَّكَ كَمَا تَزْرَعُ؛ كَذَلِكَ تَحْصُدُ**»: فَإِنَّهُ لَا يُجْتَنَىٰ مِنَ الشَّوْكِ الْعِنَبُ.

كَمَا يَزْرَعُ الزَّارِعُ؛ يَحْصُدُ الثَّمَرَةَ؛ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا، خَيْرًا أَوْ شَرًّا، فَالْجَزَاءُ عِنْدَ اللهِ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، مَنْ بَذَرَ الْخَيْرَ حَصَدَ خَيْرًا؛ جَزَاءً حَسَنًا مِنَ اللهِ، وَمَنْ بَذَرَ الشَّرَّ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- مِنْ كُفْرٍ، وَشِرْكٍ، وَبِدْعَةٍ، وَكَبِيرَةٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الشُّرُورِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَحْصُدُ إِلَّا النَّارَ وَبِئْسَ الْقَرَارُ، وَغَضَبَ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ.(*).

لَقَدْ حَثَّ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَلَى ضَرُورَةِ الِاهْتِمَامِ بِتَرْبِيَةِ الْأَطْفَالِ وَالشَّبَابِ؛ قَالَ رَبُّنَا جَلَّوَعَلَا فِي أَصْحَابِ الْكَهْفِ: ﴿**نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى**﴾ [الكهف: ١٣].

نَحْنُ بِعَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِنَا وَشُمُولِ عِلْمِنَا نَقْرَأُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ خَبَرَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ ذَا الشَّأْنِ، مُتَّصِفًا بِأَنَّهُ حَقٌّ ثَابِتٌ، إِنَّهُمْ شُبَّانٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ، وَزِدْنَاهُمْ بِمَعُونَتِنَا وَتَوْفِيقِنَا إِيمَانًا وَبَصِيرَةً.

=

والخبر صحح إسناده الألباني في «**صحيح الأدب المفرد**»: ص٧٥، رقم (١٠٣)، وروي عن أنس رضي الله عنه مرفوعا نحوه ولا يصح.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ: «شَرْحُ الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ» - بَابٌ: كُنْ لِلْيَتِيمِ كَالْأَبِ الرَّحِيمِ (ص٧١٧-٧١٩) - لِلشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ مُحَمَّد بْنِ سَعِيد رَسْلَان -حَفِظَهُ اللهُ-.

وَفِي الْآيَةِ: دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ الْفِتْيَانَ الشَّبَابَ أَسْرَعُ اسْتِجَابَةً لِنِدَاءِ الْحَقِّ، وَأَشَدُّ عَزْمًا وَتضْحِيَةً فِي سَبِيلِهِ.

وَمِنْ فَوَائِدِ الْآيَةِ:

ضَرُورَةُ الِاهْتِمَامِ بِتَرْبِيَةِ الشَّبَابِ؛ لِأَنَّهُمْ أَزْكَىٰ قُلُوبًا، وَأَنْقَىٰ أَفْئِدَةً، وَأَكْثَرُ حَمَاسًا، وَعَلَيْهِمْ تَقُومُ نَهْضَةُ الْأُمَمِ.

وَقَدْ جَمَعَ الشَّبَابُ بَيْنَ الْإِقْرَارِ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ، وَالْتِزَامِ ذَلِكَ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ كَمَالِ مَعْرِفَتِهِمْ بِرَبِّهِمْ، وَزِيَادَةِ الْهُدَىٰ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ لَهُمْ.(*).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [الكهف: ١٣].

تَرْبِيَةُ الطِّفْلِ عَلَى التَّوْحِيدِ فِي الْقُرْآنِ

يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَجْتَهِدَ فِي تَرْبِيَةِ أَبْنَائِنَا عَلَى التَّوْحِيدِ، وَفِي الدُّعَاءِ لَهُمْ أَنْ يَكُونُوا مُوَحِّدِينَ؛ فقَدْ أَخْبَرَ اللهُ -تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ- عَنْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّهُمَا كَانَا يَرْفَعَانِ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولَانِ: رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْتَسْلِمَيْنِ لِأَمْرِكَ، خَاضِعَيْنِ لِطَاعَتِكَ، لَا نُشْرِكُ مَعَكَ فِي الطَّاعَةِ أَحَدًا سِوَاكَ، وَلَا فِي الْعِبَادَةِ غَيْرَكَ.

وَدَعَوَا اللهَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا أَهْلَ طَاعَتِهِ وَوَلَايَتِهِ، وَالْمُسْتَجِيبِينَ لِأَمْرِهِ.

وَوَصَّىٰ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْإِسْلَامِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ نَبِيُّهُ ﷺ، وَهُوَ إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ وَالتَّوْحِيدِ لِلَّهِ، وَخُضُوعُ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ لَهُ.

فَعَهِدَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ بَنِيهِ بِذَلِكَ -أَيْ: بِالْإِسْلَامِ-، وَأَمَرَهُمْ بِهِ، وَوَصَّىٰ بِذَلِكَ -أَيْضًا- يَعْقُوبُ بَنِيهِ.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ الَّذِي قَدْ عَهِدَ إِلَيْكُمْ فِيهِ، ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]: فَاتَّقُوا اللهَ أَنْ تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ عَلَيْهِ.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنَ التَّعْلِيقِ عَلَىٰ: «تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ» [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ].

وَقَالَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وَضَعْ فِي ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لِآيَاتِنَا حِينَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام دَاعِيًا رَبَّهُ، بَعْدَ أَنْ أَسْكَنَ ابْنَهُ إِسْمَاعِيلَ وَأُمَّهُ مَكَّةَ: رَبِّ اجْعَلْ مَكَّةَ بَلَدًا ذَا أَمْنٍ، يَأْمَنُ كُلُّ مَنْ فِيهَا، وَأَبْعِدْنِي وَأَبْعِدْ بَنِيَّ عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.

﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ أَيِ: اجْعَلْنِي وَبَنِيَّ فِي جَانِبٍ، وَعِبَادَةَ الْأَصْنَامِ فِي جَانِبٍ آخَرَ.(*).

فَإِذَا كَانَ إِمَامُ الْحُنَفَاءِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام -وَهُوَ الَّذِي عَادَىٰ أَبَاهُ وَقَوْمَهُ، وَكَسَّرَ الْأَصْنَامَ، وَدَعَا إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَحْدَهُ- إِذَا كَانَ إِمَامُ الْحُنَفَاءِ إِبْرَاهِيمُ يَخَافُ عَلَىٰ نَفْسِهِ الشِّرْكَ، وَيَدْعُو رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يُجَنِّبَهُ وَذُرِّيَّتَهُ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: «فَمَنْ يَأْمَنُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ؟!»(٢).(*/٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [إبراهيم: ٣٥].

(٢) أخرجه الطبري في «**جامع البيان**»: (١٣/ ٢٢٨)، بإسناد صحيح، وعزاه السيوطي في «**الدر المنثور**»: (٤/ ٨٦) إلىٰ ابن أبي حاتم أيضا.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ عِيدِ الْفِطْرِ ١٤٣٥هـ: «حَقِيقَةُ الدِّينِ» - الاثنين ١ مِن شَوَّال ١٤٣٥هـ| ٢٨-٧-٢٠١٤م.

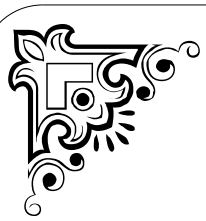

نَصَائِحُ قُرْآنِيَّةٌ جَامِعَةٌ فِي تَرْبِيَةِ الْأَوْلَادِ

إِنَّ الْوَصَايَا الَّتِي وَصَّىٰ بِهَا لُقْمَانُ لِابْنِهِ تَجْمَعُ أُمَّهَاتِ الْحِكَمِ، وَتَسْتَلْزِمُ مَا لَمْ يُذْكَرْ مِنْهَا، وَكُلُّ وَصِيَّةٍ يُقْرَنُ بِهَا مَا يَدْعُو إِلَىٰ فِعْلِهَا إِنْ كَانَتْ أَمْرًا، وَإِلَىٰ تَرْكِهَا إِنْ كَانَتْ نَهْيًا.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ الْحِكْمَةِ، وَأَنَّهَا الْعِلْمُ بِالْأَحْكَامِ، وَحُكْمِهَا وَمُنَاسَبَاتِهَا، فَأَمَرَهُ بِأَصْلِ الدِّينِ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ، وَنَهَاهُ عَنِ الشِّرْكِ، وَبَيَّنَ لَهُ الْمُوجِبَ لِتَرْكِهِ.

وَأَمَرَهُ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَبَيَّنَ لَهُ السَّبَبَ الْمُوجِبَ لِبِرِّهِمَا، وَأَمَرَهُ بِشُكْرِهِ وَشُكْرِهِمَا، ثُمَّ احْتَرَزَ بِأَنَّ مَحَلَّ بِرِّهِمَا وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِمَا مَا لَمْ يَأْمُرَا بِمَعْصِيَةٍ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَا يَعُقُّهُمَا، بَلْ يُحْسِنُ إِلَيْهِمَا؛ وَإِنْ كَانَ لَا يُطِيعُهُمَا إِذَا جَاهَدَاهُ عَلَىٰ الشِّرْكِ.

وَأَمَرَهُ بِمُرَاقَبَةِ اللهِ، وَخَوْفِهِ الْقُدُومَ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ إِلَّا أَتَىٰ بِهَا.

وَنَهَاهُ عَنِ التَّكَبُّرِ، وَأَمَرَهُ بِالتَّوَاضُعِ، وَنَهَاهُ عَنِ الْبَطَرِ وَالْأَشَرِ، وَالْمَرَحِ، وَأَمَرَهُ بِالسُّكُونِ فِي الْحَرَكَاتِ وَالْأَصْوَاتِ، وَنَهَاهُ عَنْ ضِدِّ ذَلِكَ.

وَأَمَرَهُ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَبِالصَّبْرِ اللَّذَيْنِ يَسْهُلُ بِهِمَا كُلُّ أَمْرٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٦].

فَحَقِيقٌ بِمَنْ أَوْصَىٰ بِهَذِهِ الْوَصَايَا أَنْ يَكُونَ مَخْصُوصًا بِالْحِكْمَةِ، مَشْهُورًا بِهَا.

وَلِهَذَا مِنْ مِنَّةِ اللهِ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ سَائِرِ عِبَادِهِ: أَنْ قَصَّ عَلَيْهِمْ مِنْ حِكْمَتِهِ، مَا يَكُونُ لَهُمْ بِهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ.

قَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

وَنُقْسِمُ مُؤَكِّدِينَ لَكُمْ أَنَّنَا آتَيْنَا لُقْمَانَ الْعِلْمَ، وَالْعَمَلَ، وَالْإِصَابَةَ فِي الْأُمُورِ.

وَقُلْنَا لَهُ: اشْكُرْ للهِ، وَمَنْ يَشْكُرِ اللهَ بِالْإِيمَانِ، وَالْحَمْدِ، وَالطَّاعَةِ، وَالْعَمَلِ بِمَرَاضِيهِ؛ فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ شُكْرِهِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ اللهَ يَجْزِيهِ عَلَىٰ شُكْرِهِ ثَوَابًا عَظِيمًا.

وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ بِالْإِيمَانِ، وَالْحَمْدِ، وَالطَّاعَةِ، وَالْعَمَلِ بِمَرَاضِيهِ؛ يَعُودُ عَلَيْهِ وَبَالُ كُفْرِهِ، وَاللهُ غَنِيٌّ بِذَاتِهِ، غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَىٰ شُكْرِ الشَّاكِرِينَ، مَحْمُودٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وَضَعْ فِي ذَاكِرَتِكَ -أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي آيَاتِ كِتَابِ اللهِ- ضَعْ نَصِيحَةَ لُقْمَانَ ابْنَهُ وَهُوَ يَنْصَحُهُ نُصْحًا مَقْرُونًا بِمَا يُثِيرُ الرَّغْبَةَ وَالرَّهْبَةَ: يَا بُنَيَّ الْقَرِيبَ مِنْ قَلْبِي، الْحَبِيبَ لِي! لَا تَجْعَلْ للهِ فِي اعْتِقَادِكَ أَوْ عَمَلِكَ شَرِيكًا لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ لِكَوْنِهِ، أَوْ فِي إِلَهِيَّتِهِ؛ لِأَنَّ الْتَسْوِيَةَ بَيْنَ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَبَيْنَ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّهَا ظُلْمٌ عَظِيمٌ؛ بِوَضْعِ الْعِبَادَةِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا؛ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤].

وَنَصَحْنَا الْإِنْسَانَ نُصْحًا مُؤَكَّدًا بِعَهْدٍ، نَصَحْنَاهُ هَذَا النُّصْحَ أَنْ يَبَرَّ وَالِدَيْهِ، وَيُحْسِنَ إِلَيْهِمَا، وَيُطِيعَ أَمْرَهُمَا فِي الْمَعْرُوفِ، وَيَجْعَلَ أُمَّهُ أَوْفَرَ نَصِيبًا.

حَمَلَتْهُ أُمُّهُ حَمْلَ ضَعْفٍ فِي حَالَتِهَا النَّفْسِيَّةِ عَلَىٰ ضَعْفٍ فِي قُوَاهَا الْجَسَدِيَّةِ، ثُمَّ بَعْدَ آلَامِ الْوَضْعِ وَمَتَاعِبِ النِّفَاسِ تُعَانِي الْأُمُّ مِنْ مَتَاعِبِ الْإِرْضَاعِ وَالتَّرْبِيَةِ.

وَيَكُونُ فِطَامُهُ عَنِ الرَّضَاعِ فِي مُدَّةِ سَنَتَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ الْفُضْلَىٰ.

وَقُلْنَا لَهُ: اشْكُرْ للهِ عَلَىٰ نِعَمِهِ الَّتِي لَا تُحْصَىٰ؛ بِعِبَادَتِهِ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِمَرَاضِيهِ.

وَاشْكُرْ لِوَالِدَيْكَ عَلَىٰ مَا تَحَمَّلَا وَمَا قَدَّمَا فِي تَنْشِئَتِهِمَا وَتَرْبِيَتِهِمَا مِنْ عَطَاءَاتٍ كَثِيرَةٍ.

إِلَيَّ وَحْدِي الْمَرْجِعُ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، فَأُثِيبُ عَلَىٰ الشُّكْرِ، وَأُعَاقِبُ عَلَىٰ الْجُحُودِ وَالْكُفْرِ.

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان: ١٥].

وَإِنِ اشْتَدَّا عَلَيْكَ بِالطَّلَبِ -أَيُّهَا الِابْنُ الْمُؤْمِنُ- مُكْرِهَيْنِ لَكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي شِرْكًا مَا، لَا تَعْلَمُ أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ؛ فَلَا تَسْتَجِبْ لَهُمَا فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ.

وَوَافِقْهُمَا فِي أُمُورِ الدُّنْيَا مُصَاحَبَةً حَسَنَةً، وَقَدِّمْ لَهُمَا مَعْرُوفًا؛ كَمَالٍ، وَتَكْرِيمٍ، وَخِدْمَةٍ.

وَاتَّبِعْ فِي مَسِيرَتِكَ فِي حَيَاتِكَ سَبِيلَ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ رَجَعُوا إِلَيَّ بِالْإِيمَانِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالتَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ، ثُمَّ إِلَيَّ بَعْدَ رِحْلَةِ الِامْتِحَانِ فِي الدُّنْيَا، وَبَعْدَ مَوْتِكُمْ- إِلَيَّ رُجُوعُكُمْ، وَمَكَانُ رُجُوعِكُمْ، وَزَمَانُهُ، فَأُخْبِرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ؛ لِأُجَازِيَكُمْ عَلَيْهِ.

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ١٦].

يَا بُنَيَّ الْقَرِيبَ مِنْ قَلْبِي، وَالْحَبِيبَ لِي! إِنَّ الْغَائِبَةَ عِنْدَ الْخَلَائِقِ إِنْ كَانَتْ فِي الصِّغَرِ قَدْرَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ، فَتَكُنْ هَذِهِ الْغَائِبَةُ الْخَفِيَّةُ مَعَ صِغَرِهَا فِي بَاطِنِ

صَخْرَةٍ، أَوْ فِي مَكَانٍ مَا مِنَ السَّمَوَاتِ، أَوْ فِي مَكَانٍ مَا مِنْ بَاطِنِ الْأَرْضِ؛ يَأْتِ بِهَا اللهُ مِنْ مَكَانِهَا الَّتِي هِيَ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ عَالِمٌ بِهَا، قَادِرٌ عَلَىٰ اسْتِخْرَاجِهَا.

إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ يُجْرِي تَدَابِيرَهُ وَأَفْعَالَه بِرِفْقٍ تَامٍّ، يَنْفُذُ بِصِفَاتِهِ إِلَىٰ أَعْمَاقِ كُلِّ مَوْجُودٍ خَلْقًا وَإِمْدَادًا، وَعِلْمًا وَتَصارِيفَ، عَلِيمٌ عِلْمًا كَامِلًا شَامِلًا بِكُلِّ ظَوَاهِرِ الْأَشْيَاءِ وَبَوَاطِنِهَا عِلْمَ حُضُورٍ وَشُهُودٍ وَتَدْبِيرٍ.

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧].

يَا بُنَيَّ الْقَرِيبَ مِنْ قَلْبِي، وَالْحَبِيبَ لِي! إِنِّي أُوصِيكَ بِهَذِهِ الْوَصَايَا الثَّمَانِيَةِ بَعْدَ أَنْ أَوْصَيْتُكَ بِعَهْدٍ مُؤَكَّدٍ مُشَدَّدٍ أَلَّا تُشْرِكَ بِاللهِ:

* **الْوَصِيَّةُ الْأُولَىٰ**: أَدِّ الصَّلَاةَ تَامَّةً بِأَرْكَانِهَا، وَشُرُوطِهَا، وَوَاجِبَاتِهَا.

* **الْوَصِيَّةُ الثَّانِيَةُ**: وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ الَّذِي يَعْرِفُهُ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ.

* **الْوَصِيَّةُ الثَّالِثَةُ**: انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ الَّذِي يُنْكِرُهُ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ.

* **الْوَصِيَّةُ الرَّابِعَةُ**: وَسَيُصِيبُكَ أَذًىٰ مِنَ الَّذِينَ تَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ، إِنَّ ذَلِكَ الصَّبْرَ عَلَىٰ مَا يُصِيبُ الْقَائِمَ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ يَحْتَاجُ إِرَادَةً قَوِيَّةً رَفِيعَةً هِيَ مِنْ مُسْتَوَىٰ الْعَزْمِ الَّذِي يَدْفَعُ أَصْحَابَهُ إِلَىٰ تَنْفِيذِ مَا يُرِيدُونَ مِمَّا يُرْضِي اللهَ جَلَّوَعَلَا؛ وَلَوِ اقْتَرَنَ بِهِ تَحَمُّلُ أَشَدِّ الصُّعُوبَاتِ، وَتَحَمُّلُ أَعْظَمِ الْآلَامِ.

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨].

* **الْوَصِيَّةُ الْخَامِسَةُ**: وَلَا تتكبَّرْ؛ فَتَحْقِرَ النَّاسَ، وَتُعْرِضَ بِوَجْهِكَ عَنْهُمْ إِذَا كَلَّمُوكَ كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ الْكِبْرِ.

* **الْوَصِيَّةُ السَّادِسَةُ**: وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مُخْتَالًا مُتَبَخْتِرًا فِي مِشْيَتِكَ؛ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فِي مَشْيِهِ، مُسْتَكْبِرٍ عَلَىٰ النَّاسِ بِإِعْرَاضِهِ عَنْهُمْ، مُبَالِغٍ فِي الْفَخْرِ عَلَىٰ النَّاسِ بِنَفْسِهِ، أَوْ بِمَا آتَاهُ اللهُ مِنْ قُوَّةٍ، أَوْ مَالٍ، أَوْ نَسَبٍ، أَوْ جَاهٍ، أَوْ ذَكَاءٍ، أَوْ جَمَالِ وَجْهٍ وَحُسْنِ طَلْعَةٍ.

وَمَنْ لَا يُحِبُّهُ اللهُ؛ فَإِنَّهُ يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِعِقَابِهِ.

﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٩].

* **الْوَصِيَّةُ السَّابِعَةُ**: وَلْتَكُنْ فِي مِشْيَتِكَ مُتَوَسِّطًا بَيْنَ الْإِسْرَاعِ وَالتَّأَنِّي فِي سَكِينَةٍ وَوَقَارٍ.

* **الْوَصِيَّةُ الثَّامِنَةُ**: وَاخْفِضْ مِنْ صَوْتِكَ بِقَدْرِ حَاجَةِ الْمُسْتَمِعِينَ، إِنَّ رَفْعَ الصَّوْتِ دُونَ حَاجَةٍ إِلَىٰ رَفْعِهِ مِنْ صِفَاتِ الْحَمِيرِ؛ فَلَا تَكُنْ يَا بُنَيَّ مُتَّصِفًا بِصِفَةٍ هِيَ مِنْ صِفَاتِ الْحَمِيرِ الَّتِي تَنْهَقُ فَتَرْفَعُ أَصْوَاتَهَا الْمُنْكَرَةَ، إِنَّ أَقْبَحَ الْأَصْوَاتِ وَأَكْثَرَهَا تَنْفِيرًا لِلْأَسْمَاعِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ.

يَا بُنَيَّ! إِنَّ السَّيِّئَةَ أَوِ الْحَسَنَةَ مَهْمَا كَانَتْ صَغِيرَةً مِثْلَ وَزْنِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ، وَكَانَتْ فِي بَطْنِ صَخْرَةٍ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا أَحَدٌ، أَوْ كَانَتْ فِي أَيِّ مَكَانٍ مِنَ السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ؛ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجَازِي الْعَبْدَ عَلَيْهَا.

إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ، خَبِيرٌ بِهِمْ، لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ.

يَا بُنَيَّ! أَقِمِ الصَّلَاةَ بِأَدَائِهَا عَلَىٰ أَكْمَلِ الْوُجُوهِ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا نَالَكَ مِنْ مَكْرُوهٍ فِي ذَلِكَ، إِنَّ مَا أَمَرْتَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ مِمَّا عَزَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْكَ أَنْ تَفْعَلَهُ؛ فَلَا خِيرَةَ لَكَ فِيهِ.

وَلَا تُعْرِضْ بِوَجْهِكَ عَنِ النَّاسِ تَكَبُّرًا، وَلَا تَمْشِ فَوْقَ الْأَرْضِ مُخْتَالًا مُتَكَبِّرًا، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فِي مِشْيَتِهِ، فَخُورٍ بِمَا أُوتِيَ مِنْ نِعَمٍ لَا يَشْكُرُ اللهَ عَلَيْهَا، بَلْ يُبْغِضُهُ.

وَتَوَسَّطْ فِي مَشْيِكَ بَيْنَ الْإِسْرَاعِ وَالدَّبِيبِ، مَشْيًا يُظْهِرُ الْوَقَارَ.

وَاخْفِضْ مِنْ صَوْتِكَ، لَا تَرْفَعْهُ رَفْعًا يُؤْذِي، إِنَّ أَقْبَحَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ فِي ارْتِفَاعِ أَصْوَاتِهَا.

وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَاتِ: وُجُوبُ تَعَاهُدِ الْأَبْنَاءِ بِالتَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ، وَالنَّصِيحَةِ وَالتَّوْجِيهِ.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [لقمان: ١٢ - ١٩].

عَلِّمُوا أَبْنَاءَكُم!

عَلِّمُوا ذَوِيكُم!

عَلِّمُوا أَهلِيكُم!

عَلِّمُوا الدُّنيَا كُلَّهَا أُصُولَ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ!

عَلِّمُوهُم كَيفَ يَأخُذُونَ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ بِمِنهَاجِ النُّبُوَّةِ، بِفَهمِ الصَّحَابَةِ وَمَن تَبِعَهُم بِإِحسَانٍ!

وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّ العَالمِينَ فِي دِينِكُم، وَاحذَرُوا أَنْ تُضَيِّعُوهُ؛ فَإِنَّ الفُرصَةَ لَا تَسْنَحُ كُلَّ حِينٍ!!

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٌ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.(*).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ خُطْبَة: «طَرِيقُ الِاسْتِقْرَارِ فِي مِصْرَ» - الْجُمُعَة ١ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٣٥هـ| ٣٠-٥-٢٠١٤م.

الدَّرْسُ الْعَاشِرُ:

الْحَثُّ عَلَى الِاسْتِغْفَارِ وَثَمَرَاتُهُ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

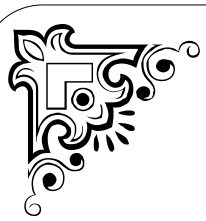

كَثْرَةُ اسْتِغْفَارِ النَّبِيِّ ﷺ

فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ فِي الْمَجْلِسِ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ؛ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**»(١) مِئَةَ مَرَّةٍ. أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ مَاجَه، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الصَّحِيحَةِ».

قَوْلُهُ ﷺ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي**»: اسْتِغْفَارُ الْأَنْبِيَاءِ، دَلَّ عَلَيْهِ مَا كَانَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- كَانُوا يُكْثِرُونَ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ؛ لِإِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ لِلْعَزِيزِ الْقَهَّارِ.

وكَذَا بِالِاعْتِرَافِ بِالْعَجْزِ وَالْقُصُورِ عَمَّا وَجَبَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَدَاءِ حَقِّ الْخَلَّاقِ الْعَظِيمِ، وَلِتَعْلِيمِ أُمَمِهِمْ مَا يَنْبَغِي عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَذَلَّةِ وَالْخُضُوعِ وَالرُّكُونِ إِلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَالْخُلُوصِ مِنْ حَظِّ النَّفْسِ، وَمِنَ الرُّكُونِ إِلَيْهَا.

---

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «**السنن**»: (٢/ ٨٥، رقم ١٥١٦)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي «**الجامع**»: (٥/ ٤٩٤- ٤٥٠، رقم ٣٤٣٤)، وَابْنُ مَاجَه فِي «**السنن**»: (٢/ ١٢٥٣، رقم ٣٨١٤)، واللفظ له.

قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ»، وصحح إسناده الألباني في «**الصَّحِيحَةِ**»: (٢/ ٩٦، رقم ٥٥٦).

«**رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ**»؛ أَيْ: ارْجِعْ عَلَيَّ بِالرَّحْمَةِ، وَوَفِّقْنِي لِلتَّوْبَةِ، أَوِ اقْبَلْ تَوْبَتِي(١).

«**إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**»: وَمِنَ الْمَعْلُومِ: أَنَّهُ مِمَّا يَنْبَغِي فِي الدُّعَاءِ، وَمِنَ اسْتِعْمَالِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَىٰ فِيهِ: أَنْ يَجْتَهِدَ الْإِنْسَانُ فِي الْإِتْيَانِ بِمَا يُنَاسِبُ مَا يَطْلُبُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَىٰ.

فَإِذَا طَلَبَ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الرِّزْقَ؛ قَالَ: اللهم ارْزُقْنِي يَا رَزَّاقُ يَا كَرِيمُ، وَإِذَا طَلَبَ مِنَ اللهِ -تَعَالَىٰ- الْحِفْظَ؛ قَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ ذلِكَ بِذِكْرِ اسْمِ اللهِ «الْحَفِيظُ»: يَا حَفِيظُ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي.

يَا قَوِيُّ قَوِّنِي.. يَا عَلِيمُ عَلِّمْنِي.

فَالنَّبِيُّ ﷺ ذَكَرَ مَا يُنَاسِبُ الْمَقَامَ فِي الطَّلَبِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَىٰ، فَقَالَ ﷺ مُسْتَغْفِرًا وَرَاجِعًا إِلَىٰ اللهِ وَمُنِيبًا إِلَيْهِ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ؛ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**».

قَالَ ﷺ: «**وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**»(٢). أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

---

(١) «**مرقاة المفاتيح**»: (٤/ ١٦٣١)، و«**وعون المعبود**»: (٤/ ٢٦٦).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «**الصحيح**»: (١١/ ١٠١، رقم ٦٣٠٧)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

وَفِي رِوَايَةٍ: «**تُوبُوا إِلَىٰ اللهِ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ**»(١). أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

فَكَانَ ﷺ -كَمَا دَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ- يُكْثِرُ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ إِلَىٰ اللهِ؛ شُكْرًا عَلَىٰ مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي لَا تُحْصَىٰ.(*).

❀❀❀

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «**الصحيح**»: (٤/ ٢٠٧٥، رقم ٢٧٠٢)، من حديث: الْأَغَرَّ الْمُزَنِيِّ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، يُحَدِّثُ ابْنَ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**... الحديث».

وفي رواية له أيضا: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَىٰ قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**».

(**لَيُغَانُ**) أي: يغشىٰ الْقلب مَا يغطيه.

انظر «**تفسير غريب ما في الصحيحين**»: (١/ ٤٩٣، رقم ١٦٣).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ: «شَرْحُ الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ» (ص ٢٦٩٨-٢٧٠٦).

الْحَثُّ عَلَى الِاسْتِغْفَارِ فِي الْقُرْآنِ

لَقَدْ أَمَرَ اللهُ بِالِاسْتِغْفَارِ؛ فَاللهُ يَغْفِرُ الذَّنْبَ الْعَظِيمَ لِمَنِ اسْتَغْفَرَهُ وَتَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ، وَيُوَفِّقُهُ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ بَعْدَ ذَلِكَ الْمُوجِبِ لِثَوَابِهِ، وَزَوَالِ عِقَابِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦].

«وَاسْتَغْفِرِ اللهَ مِمَّا هَمَمْتَ بِهِ»(١)، مِمَّا يُعَدُّ بِالنِّسْبَةِ لِمَنْصِبِكَ الرَّفِيعِ ذَنْبًا؛ يَغْفِرُ اللهُ لَكَ، إِنَّ اللهَ كَانَ كَثِيرَ السَّتْرِ لِذُنُوبِ عِبَادِهِ، دَائِمَ الرَّحْمَةِ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْأَمْرُ فِي ظَاهِرِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ فِي عُمُومِهِ لِكُلِّ أُمَّتِهِ، وَلِكُلِّ قَاضٍ يَفْصِلُ بَيْنَ النَّاسِ.(*).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وَمَنْ يَعْمَلْ عَمَلًا سَيِّئًا مِنَ الصَّغَائِرِ أَوِ الْكَبَائِرِ، يُدْرِكُ النَّاسُ قُبْحَهُ، وَيَسُوؤُهُمْ أَنْ يَرْتَكِبَهُ، أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ بِارْتِكَابِ الْمَعَاصِي فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِ، ثُمَّ

---

(١) «مختصر تفسير البغوي»: (١/ ٢٠٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [النساء: ١٠٦].

يَسْتَغْفِرِ اللهَ مِنْ ذُنُوبِهِ وَظُلْمِ نَفْسِهِ بِمَعْصِيَةِ رَبِّهِ، مَعَ النَّدَمِ وَالْعَزْمِ عَلَىٰ الِاسْتِقَامَةِ؛ يَجِدِ اللهَ كَثِيرَ السَّتْرِ لَهُ، دَائِمَ الرَّحْمَةِ بِهِ، يَعْفُو عَنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ الْكَبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ[١].(*).

ﻯ ❁❁❁ ﻯ

(١) «**المختصر في تفسير القرآن**»: (١/ ٩٦)، بتصرف يسير وزيادة تعليق.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [النساء: ١١٠].

جُمْلَةٌ مِنْ ثَمَرَاتِ الِاسْتِغْفَارِ

أَمَرَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا بِالِاسْتِغْفَارِ، وَأَخْبَرَ -سُبْحَانَهُ- أَنَّهُ كَثِيرُ الْمَغْفِرَةِ لِمَنْ تَابَ وَاسْتَغْفَرَ، فَرَغَّبَهُمْ بِمَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ حُصُولِ الثَّوَابِ، وَانْدِفَاعِ الْعِقَابِ.

وَرَغَّبَهُمْ -أَيْضًا- بِخَيْرِ الدُّنْيَا الْعَاجِلِ بِإِرْسَالِ الْمَطَرِ الْمُتَتَابِعِ الَّذِي يَرْوِي الشِّعَابَ وَالْوِهَادَ، وَيُحْيِي الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ.

وَكَذَلِكَ يُكْثِرُ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي تُدْرِكُونَ بِهَا مَا تَطْلُبُونَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَوْلَادَكُمْ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا، وَهَذَا مِنْ أَبْلَغِ مَا يَكُونُ مِنْ لَذَّاتِ الدُّنْيَا وَمَطَالِبِهَا(١).

وَمِمَّا يَتَرَتَّبُ عَلَى الِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ: أَنْ يُعْطِيَكُمْ مِنْ رِزْقِهِ مَا تَتَمَتَّعُونَ بِهِ وَتَنْتَفِعُونَ إِلَى وَقْتِ وَفَاتِكُمْ، وَيُعْطِي أَهْلَ الْإِحْسَانِ وَالْبِرِّ مِنْ فَضْلِهِ وَبِرِّهِ مَا هُوَ جَزَاءٌ لِإِحْسَانِهِمْ؛ مِنْ حُصُولِ مَا يُحِبُّونَ، وَدَفْعِ مَا يَكْرَهُونَ(٢).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن»: (ص ٨٨٨- ٨٨٩)، بتصرف واختصار يسير.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن»: (ص ٣٧٦)، بتصرف واختصار يسير.

وَاطْلُبُوا مِنْ رَبِّكُمُ السَّتْرَ لِسَالِفِ ذُنُوبِكُمْ، ثُمَّ ارْجِعُوا إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، إِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ، وَأَخْلَصْتُمُ الْعِبَادَةَ للهِ -سُبْحَانَهُ-؛ بَسَطَ عَلَيْكُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَأَسْبَابِ الرِّزْقِ مَا تَعِيشُونَ بِهِ فِي أَمْنٍ وَسَعَةٍ وَخَيْرٍ إِلَىٰ حِينِ الْمَوْتِ، وَإِلَىٰ وَقْتِ انْقِضَاءِ آجَالِكُمْ، وَيُعْطِي كُلَّ ذِي زِيَادَةٍ مِنْ إِيمَانٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ فِي الدُّنْيَا أَجْرَهُ، وَثَوَابَهُ فِي الآخِرَةِ.

وَإِنْ تُدِيرُوا ظُهُورَكُمْ كَافِرِينَ، غَيْرَ مُسْتَجِيبِينَ لِمَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْهُدَىٰ؛ فَقُلْ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللهِ: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ النَّارِ فِي الآخِرَةِ.(*).

وَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

فَقُلْتُ -يَعْنِي نُوحًا عليه السلام- لِقَوْمِي: اطْلُبُوا مِنْ رَبِّكُمْ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ بِتَوْبَتِكُمْ عَمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ كُفْرٍ وَفُسُوقٍ، إِنَّهُ كَانَ وَلَمْ يَزَلْ كَثِيرَ الْمَغْفِرَةِ لِذُنُوبِ مَنْ يَرْجِعُ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ بِالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ.

إِنْ تُؤْمِنُوا وَتُسْلِمُوا، وَتَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ، وَتَتُوبُوا إِلَيْهِ؛ يُرْسِلْ عَلَىٰ أَرْضِكُمْ وَبِلَادِكُمْ مَاءَ السَّمَاءِ كَثِيرًا مُتَتَابِعًا فِي مَنَافِعِكُمْ وَسُقْيَاكُمْ، وَيُكَثِّرْ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ بَسَاتِينَ تَنْعَمُونَ بِجَمَالِهَا وَثِمَارِهَا، وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا جَارِيَةً؛ لِإِمْتَاعِ نُفُوسِكُمْ وَأَعْيُنِكُمْ، وَلِسُقْيَا الْأَشْجَارِ وَالزُّرُوعِ.(*/٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» -[هود: ٣].

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» -[نوح: ١٠-١٢].

عَلَىٰ الْعَبْدِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي الِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ عِنْدَ الْوُقُوعِ فِي الْمَعَاصِي وَالْمَعَائِبِ.

وَعَلَىٰ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي تَحْقِيقِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ، وَلْيَتَّخِذِ اللهَ هَادِيًا وَنَصِيرًا وَحَاكِمًا وَوَلِيًّا؛ فَإِنَّهُ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا.

فَيَا مَنْ عَزَمَ السَّفَرَ إِلَىٰ اللهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ؛ قَدْ رُفِعَ لَكَ عَلَمٌ فَشَمِّرْ إِلَيْهِ، فَقَدْ أَمْكَنَ التَّشْمِير، وَاجْعَلْ سَيْرَكَ بَيْنَ مُطَالَعَةِ مِنَّتِهِ، وَمُشَاهَدَةِ عَيْبِ النَّفْسِ وَالْعَمَلِ وَالتَّقْصِيرِ؛ فَمَا أَبْقَىٰ مَشْهَدُ النِّعْمَةِ وَالذَّنْبِ لِلْمُحْسِنِ مِنْ حَسَنَةٍ، يَقُولُ: هَذِهِ مُنْجِيَتِي مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ، وَمَا الْمُعَوَّلُ إِلَّا عَلَىٰ عَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ؛ فَكُلُّ أَحَدٍ إِلَيْهَا فَقِيرٌ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلِيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي؛ فَاغْفِر لِي، أَنَا الْمُذْنِبُ الْمِسْكِينُ، وَأَنْتَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ.

مَا تُسَاوِي أَعْمَالُكَ لَوْ سَلِمَتْ مِمَّا يُبْطِلُهَا أَدْنَىٰ نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِهِ عَلَيْكَ، وَأَنْتَ مُرْتَهَنٌ بِشُكْرِهَا مِن حِينَ أَرْسَلَ بِهَا إِلَيْكَ؛ فَهَلْ رَعَيْتَهَا بِاللهِ حَقَّ رِعَايَتِهَا وَهِيَ فِي تَصْرِيفِكَ وَطَوْعَ يَدَيْكَ؟!!

فَتَعَلَّقْ بِحَبْلِ الرَّجَاءِ، وَادْخُلْ مِنْ بَابِ التَّوْبَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصحَابِهِ أَجمَعِينَ.(*).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «عَرَفْتَ فَالْزَمْ» - ٢٨ مِنْ جُمَادَىٰ الْأُولَىٰ ١٤٣٣| ٢٠-٤-٢٠١٢م.

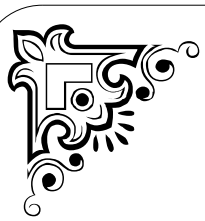

الْفِهْرِسُ

الْمُقَدِّمَةُ..... ٣

الدَّرْسُ الْأَوَّلُ: رَمَضَانُ شَهْرُ الْقُرْآنِ وَالصِّيَامِ..... ٩

الدَّرْسُ الثَّانِي: أُصُولُ التَّوْحِيدِ وَمَعَالِمُهُ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ..... ١٩

الدَّرْسُ الثَّالِثُ: دُرُوسُ التَّوْحِيدِ فِي آيَةِ الْكُرْسِيِّ..... ٤٥

الدَّرْسُ الرَّابِعُ: فِي كُلِّ مِحْنَةٍ مِنْحَةٌ..... ٦٣

الدَّرْسُ الْخَامِسُ: أَذْكَارٌ وَأَدْعِيَةٌ عَظِيمَةٌ وَقْتَ الْمِحَنِ..... ١٠١

الدَّرْسُ السَّادِسُ: احْذَرُوا عَوَاقِبَ الذُّنُوبِ! ١١٩

الدَّرْسُ السَّابِعُ: دَعْوَةُ الْأَنْبِيَاءِ جَمِيعًا إِلَىٰ التَّوْحِيدِ..... ١٣١

الدَّرْسُ الثَّامِنُ: مَثَلُ الْمُوَحِّدِ وَالْمُشْرِكِ..... ١٤١

الدَّرْسُ التَّاسِعُ: دُرُوسٌ قُرْآنِيَّةٌ فِي تَرْبِيَةِ الْأَبْنَاءِ..... ١٥٥

الدَّرْسُ الْعَاشِرُ: الْحَثُّ عَلَىٰ الِاسْتِغْفَارِ وَثَمَرَاتُهُ..... ١٧١

الْفِهْرِسُ..... ١٨٣